عزيز فِيرم

نبض الأقدار

رواية

الطبعة الأولى 2022
ISBN: 9789189288492
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2022-04-12-12-02
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
هاتف: 0046790185518
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.
© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. المؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

إهداء

إلى عائلتي الغالية، تقديراً وتبجيلاً.

إلى قلوب تألمت وأُثخنت بالجراح، قالت يا رب ، وصبرت ،فنالت .

إلى القارئ العربي في كل مكان ، حبّاً تقديراً.

الجزائر في : 18 ابريل - نيسان- 2019ميلادي

كن مع الله ، لا مع البشر.

الحياة لا تتوقف عند أحد، ولا تموت لموت أحد ولا لحياة أحد ، الحياة ليست إنسان ، ولا مكان ، ولا زمان، الحياة نورٌ من الله مستمرٌ لا يخفت ولا يبهت ولا ينطفئ ، إلا بأمر الله ، لا بأمر البشر ، الحياة أن تكون بقرب الله ومعيته ،الحياة هي الرضا بالقضاء والقدر خيره وشره ، وذلك من تمام الايمان ، لا تتوقع الكثير من النّاس ولا تراهن كثيرا عليهم، لا تغامر بحياتك من أجل من لا يستحق، وإن هبّت ريح عاتية قبالتك فقد تكون رسالة من الله لك ، إنذار أو تنبيه أو رد إليه جميل ، الحياة أن تعيش مع من يستحقك كإنسان لك كيان واحساس وقلب ينبض بها، يقبلك كما أنت ، بعيوبك ، زلاتك ، قصورك-من النقص- ، لا بكمالك ، وغناك ومركزك، وقصورك-من الغنى-، لا تبحث عن سعادتك في شيء ما حولك ، بل ابحث عنها بداخلك ، لأنك أنت الوحيد من تصنعها بيدك، وأنت الوحيد من يدمرها بيده.

<u>قد تصبر صبرا كبيراَ ، ولكنك ستجني فوزاَ عظيما.</u>

1. إرهاصـــــات تمرُّد .

لم تكن تلك اللّحظة الآسرة التي وقعت فيها عيونه على شعاع براق منبعث من مكان مضيء يزاحم تلك الشمس التي اسدلت خيوطها عليه . سوى رّفة عين من زمان هائم . ومكان إليه الحنين دائم .

وائل الرّجل المليء بنظارة الشّباب اليّافع، لطالما حمل في قلبه حقائب العزم و السّعي لمستقبل أفضل وغد افضل . رغم الظُّلمة الدّامسة العسْعسْ، التي تربي و ترعرع في ظلها .لقد تحالفت في صباه وفي شبابه عديد الظّروف الموجعة التي وخزت صدره و أدمت فؤاده . كانت سببا دافعا، ووهجا شافعا لإنكار ذلك الزمن المـُريع .

طفولته التي انبثق منها الخوف والخجل والتمرد آن الوقت، لم تكن كذلك كالتي نشأ فيها أترابه وأقرانه الذين كانوا يعيشون معه في نفس الحي العتيق الذي توسط أرجاء المدينة الهادئة، حيث يكتظ الشّارع بزحام النّاس وغوغاء السيارات المهترئة منها و الجديدة على حد سواء . عبد الرحيم زوج مربيته المتشدّد له طقوسه الخاصة في المعاملة ،برنامج عسكري يعتنقه ، لا يريد لوائل الخروج إلى جنبات الحي و لا حتى إلى بعد مسافة سنتمترات من البيت الذي اراده أن يكون له متنفسا وحيداً . ربما يرجع ذلك

إلى قناعته بأن من هم في الخارج كلهم بؤساء وقطاع طرق و أصحاب خطيئة سيدّكون أفكاره بسم ناقع و مخدر فاقع . وهو الذي كان متحفظا حتى في أبسط الأمور و الأشياء.

هذا الزخم من التجاذبات لم يمنع من تسجيل عبد الرحيم الفتى في كُتّاب الحي الذّي كان يشرف عليه شقيقه الأكبر الحافظ لكتاب الله المطبق لشريعته و منهجه . فرأى فيه مربيّا ومعلما مصلحا .

دخل الغلام صاحب الأعوام الثلاثة إلى المدرسة القرآنية ذات يوم من صيف حار ليعلن و يؤرخ للخروج من غياهب السّجن إلى مدرسة الحياة، فيكتشف عبر خطواته الأولى عبق الشارع الذي أغدقت عليه السّماء حينها بزخات مطرية رعدية انعشت الهواء العليل و روت القلب الذليل.

لقد انبهر الفتى بهذا الزخم السيمفوني العجيب. صيّب و هواء و تراب ونسمات تدغدغ وجهه البريء ،و ترحل بخصلات شعره الأسود الدّاكن يمينا و شمالا فتسافر به في كل الدنيا . إنها مسافة لا تزيد على الثلاثين مترا تلك التي تفصل البيت عن الكتّاب، ولأنها مبهجة و ممتعة خالها ثلاثون عاما بأيامها و لياليها . لم يكن وائل يريد الوصول إلى حجرة الدراسة التي اتخذها رشدي أخ عبد الرحيم داخل المسجد مكانا لتحفيظ تلاميذه القرآن و أصول الدّين . لقد كان يطيل الخطى و يمعن النظر في كل جزئيات الشّارع القصير.

ولأنه لم يكن لوحده، فقد كان يرافقه أحد المعارف أو الجيران في كل مرة لحداثة سنّه، و جدّة عهده بالشارع. فلم يكن بوسعه اللّعب حينها مع فتيان الحي الذين كانوا يركلون الكّرة ويقذفونها في كل فجّ . و أصواتهم تصدح في كل جدران المكان، ينظر اليهم في وله ببراءة لم تلوثها عتمة ظلام ، يحلم بأن يكون معهم يشبع هذه الرغبة الجامحة في ممارسة شيطنة الطفولة العابثة . يتساءل لماذا لا أكون معهم ؟ تُرى كيف هو طعم الإحساس الذي ينتابهم وهم على حالهم هذا ؟ ما الفرق بيننا ؟ هل سأكون معهم مرة قادمة ؟

كانت تلك الأسئلة تجتاح كيانه، و لم يكن مركِزا أبدا في بداياته الأولى مع القراءة التي أضحت وكأنها عدوّا داهما يتربّص به، ليسرق منه أوقاته ومتعته و رغبته في الدّخول لهذا الفناء الرائع الجميل . فقط استهوته ورقت له سورة الفاتحة التي كان يسمع آياتها الجميلة عندما يرتّلها عبد الرحيم زوج مربيته سماح بصوته الرّخيم الذي ينطلق في الأفاق وكأنه مزمار من مزامير آل داوود وهو يقرأ القرآن في حجرة البيت .

ولما كان أخ عبد الرحيم- رشدي- هو من كان يشرف عليه -خارج أسوار المنزل تربية و تلقينا للسّور الأولى من القرآن - فلقد كان محبّبا إليه ،لا يستثيره غضبا هذا الفتى مهما فعل . فأحس الأخير أنه بإمكانه ممارسة بعضا من لعبه داخل قسم الكتّاب .

وائل ومع مرور الأيام نزع إلى التقرب من بعض الشلة من الصبية الذين يدرسون معه ليتخذهم أصدقاء له -على قلتهم- .

ولإدراكه -بعد تجارب -أن عمه الكتوم لن يدلي بخبر إلى الوالد- زوج مربيته سماح- فقد استباح اللعب بين جنبات المدرسة القرآنية متنفسه الأول والأخير.

أيام رشدي في التدريس داخل هذا الكتّاب لم تكن طويلة، حيث بقي فقط للإشراف على المسجد كإمام تاركا مهمة التعليم لشيخ آخر يدعى حافظ، الذي انتشر خبر تكليفه كالنار في الهشيم بين صفوف التلاميذ ،وهو المشهور بصرامته و بإنزاله العقوبة في حق كل مستهتر فوضوي . وما غصن الزيتون الطّويل الذي في يده لخير دليل على ذلك.

أصبح الغلام الآن بين متناقضين، حبه الوهّاج للخروج إلى الشارع ,و خوفه الزائد من الدّراسة عند عمسيدي الصارم. لقد عانى كثيرا، للتأقلم مع هذا التغير الجذري،فهذا الشيخ الجديد كان و لايزال صديقا حميما للوالد الذي كان يوصيه وبشدة على ألا يترك مجالا للفتى بأن يلعب ويتخذ من المسجد طريقا للهو والعبث ، ربما هذا الأمر كان منعرجا حاسما - رغم قسوته - في حفظ الغلام -لجزء ياسين- لاحقا بسب نزعة الخوف التي اعترته حتى أنه كان يراجع محفوظه عند أوبته الى المنزل مطوّلا ليدرئ عن نفسه السوط والبطش.

وجاءت مناسبة المولد النبوي الشريف لتكريم بعض حفظة كتاب الله بجوائز قيّمة , كان فيها نصيب للتلاميذ المبتدئين والذين حصّلوا بعضا من الكتاب الكريم , لقد كان الفتى واحدا منهم ، تمّ تنظيم الحفل وبدأت المسابقة وتقدم إلى طاولتها عدّة تلاميذ إلى أن حان وقت تقدم وائل إلى منصة الحفظ حيث طلب منه قراءة بعض السّور التي ألقاها بشكل طلق صحيح , ولكن ما إن وصل إلى بعضها الآخر حتى تبلدت أطرافه و بدأت ترتعد فرائصه و يحمّر وجهه و تتبعثر كلماته. ولم يستطع حتى الوقوف في مواجهة لجنة التحكيم، التي قررت بالنهاية منحه جائزة تقديرية تشجيعية، لإقرارها وجود رهاب و

خوف فظيع لدى الفتى في مواجهة الغير , مسدّين النصيحة لوالده الحاضر بضرورة تغيير منهج المعاملة وطريقة الحوار مع الولد ،ومع جميع الصّبيان الذين يتميزون بالانطواء و الانعزال.

لقد أخذ الوالد إرشادات و نصائح هؤلاء الأئمة والمشايخ أعضاء لجنة التحكيم على محمل الجّد، ولكن على مضض .وهو الذي يعرف بكراهيته لكل رأي يخالف طريقة تفكيره وخطة عمله في الحياة. لكنه في الوقت ذاته كان يبجل هذا النوع من النّاس لعدة اعتبارات.

كانت الخطوة الأولى في تغيير أسلوبه بأن يسمح لوائل بالخروج إلى الشارع بضوابط وقيود نظامية شبه عسكرية، تكاد تكون أشبه لعقوبة منزلية منها إلى أسلوب مرن هدفه التنفيس و إزاحة التشنج وفك القيود.

في خروجه الأول وفق هذا النظام الجديد ألقى الوالد على مسامع الطفل مجموعة من الشروط أولها مسافة الخروج بأن لا تزيد عن نصف الشارع الذي به البيت. ثم أسماء الأولاد الذين يمكنه اللّعب معهم دون آخرين ،مع وقت محدّد للدخول و الخروج، و بأن لا تتجاوز مدة الخروج نصف ساعة في اليوم وغير ذلك كثير . ولأنه كسّر القيد الأول بأن حقق أمنية الخروج إلى باحات المنزل الذي يعيش فيه، فلقد قبل وائل حزمة الشروط التي لم يكن ويظن أنها قيدته أكثر مما فكت عقدته.

لقد بدأ يشعر تواليا بمرور الوقت بهذا الانطباع الذي نغّص معيشته أكثر و أشعره بالوجع والوهن أكثر فأكثر . لقد أصبح و أضحى يسمع كلمات وتعليقات مشينة توخز قلبه

بنيران الحرقة و التحسّر . إنهم يرمونه بشرر وبسهام من نار وكأنه هو من رسم هذا الواقع البائس المرير ،الذي لم يرضه إنسان لنفسه بحال من الأحوال .

عبارات- أنت معقد، أنت لا تخرج ،أنت متخلف - وأخرى وجدت لها في نفسه مستقرا ومقاما. لقد أصبحت جزءَ من يومياته. بل إنها أخذت نصيبا هاما من كل لحظاته . لقد زادت كراهيته للشارع ولأبيه الذي كان وراء رسم هذا المشهد المؤلم، و لشلّة الأصدقاء الذين عرفهم حديثا. لم يكن يدري بأن في الحياة كل هذا الوجع الدّفين، ولا كل هذا الكم من اللاإنسانية و سوء المعاملة من طرف من ؟ من طرف أطفال" براءة "في مثل عمره أو ما يناهز، هذا السيل العرم من الألم جعله ينزع مرة وأخرى إلى الانكفاء عن الآخرين . وفى قرارة نفسه تيار جارف من التساؤلات :

-هل أنا المعقد أم هم القساة ؟ هل أنا الضّحية وهم الجلادون ؟ أم أنا سيء التصرف وهم المحسنون ؟

وقائع كهذه جعلته يركن إلى تفكير عميق ،وإلى حساب كل حركة وكل سكنة قبل أن يتصرف وأن يراقب أقواله وأفعاله في كل برهة... وأن يحاسب نفسه عند كل خطوة بل كل نصف خطوة، درء لكل ردة فعل قد تحسب عليه ،فيزداد الطّين بلّة . إنه يتوجس في نفسه خيفة كلما أراد الخروج إلى الشارع بحسب الميعاد المرسوم من قبل الوالد . و يتوجس خيفة مرة أخرى ،عند خطوة الخروج الأولى حول من سيقابله من أولئك الأصدقاء الذين يخافهم. ولكن لا يعلم إن كانوا على صواب في تحاملهم ضده أو لا ؟

والواقع أنه لم يكن بينهم سوى شخص واحد مال إليه قلبه، وقد أصبح زميلا له في المدرسة فيما بعد .يحب أن يلتقيه وأن يلعب معه، بل وأن يفتح له مكنونات قلبه و لواعج صدره. ويفضفض له ما به من هموم، على سبيل الراحة لا على سبيل التغيير، الذي لم تفلح في فك شيفرته حتى مربيته سماح الجسورة التي تحملت كل شيء من أجل أبنائها .

ربما الوالد ليس على علم بحال من الأحوال – أو هكذا تظاهر ربما- بأزمة فتاه النفسية التي عصفت به وأدخلته عتمة اللامكان واللازمان ، فلقد كان منشغلا بشكل لافت بتجارته، التي كان يمارسها منذ ما يزيد عن عقدين من الزمن داخل المدينة ،و ما يربو عن عقد من الزمن أو ما يزيد داخل هذا الحي الشعبي. ولأنه كان تاجرا ماهرا فلقد كان يحسن التصرف في مجال عمله فكوّن مداخيل هامة ، بل مد روابط وعلاقات مترامية الأطراف مع كل أصناف ومكونات المجتمع الذي يعيش فيه.

و لا عجب في ذلك فلقد كان هو المتجر الأول في هذه المدينة بعد خروج المستعمر . ولما كانت الحوانيت حينها لا تزيد عن أربع حوانيت في كل ارجاء المدينة. فقد ارتأى توسيع نشاطه التجاري لبيع أغلب السلع والبضائع حتى المفقودة منها . بل زاد إلى ذلك طائفة أخرى من أنواع التجارة الأخرى.

إن أمرا كهذا لكفيل بجعل عبد الرحيم واحدا من رموز المجتمع ،فالمحلات أصبح يعرفها القاصي والداني من داخل و حتى من خارج أسوار المدينة، ليستحيل في رمشة عين إلى مركز لحل وفض خصومات المتنازعين تكبيرا واحتراما لهذا الرّجل الذي أبدى بديهة وحسنا للتصرف عند استقبال المتخاصمين وإصلاح ذات البين. والعجيب أنه وبعد

صنيعه يصر لهم على الإفطار داخل بيته كعربون و رمز محبة و ألفة وعهد على الالتزام ببنود عقد الصلح المبرم حديثا .

لقد أصبح الوالد مثار إعجاب كثير من الناس الذين رأوا فيه كاريزما رجل نادر الوجود فرشحوه لتقلد مناصب في المدينة في وقت لم يكن للمؤهل الأكاديمي و الدرجة العلمية أية دلالات . ورغم إصرار بعض أصدقائه على دخول هذا المعترك الجديد، إلا أنه رفض وبشدة حيث رأى أنه يصلح كتاجر وليس لشيء أخر غير ذلك . فاستمر بذلك الوصف تاجرا كوظيفة ، فاضّا لنزاعات المتخاصمين هواية .

إنهم على اختلاف أعمارهم ومشاربهم لم يكونوا ليردوا له رأيا و لا منطوقا .بحسب ما أعطاه الله من بسطة في الجسم وملكة في إبداء الرأي السّديد. ولما رأوا فيه من عدالة التحكيم وبعد النظر.

أما في وظيفته فالحال يقول أنه كان مساعدا للفقراء و المعوزين بحيث لا يأخذ منهم مقابلا في بعض الأحايين وفي أحيان أخرى كان يأخذ بأيديهم عن طريق فتح سجل لقيد ديونهم دون أن يقيّدهم بزمان أو مكان للإيفاء بما عليهم . بل إنه يقدم احايين اخرى على مسح ديون المعسرين منهم نهائيا.

" سي محمد " وهو أحد زبائن الوالد يتبضع من حانوته كل ما يحتاجه. فتراه يسدد ما عليه عين اللحظة، وقد يؤجل موعد التسديد إلى بداية كل شهر جديد، إلى حين دخول راتبه الشهري وهو الذي يشتغل في مهنة التعليم كمعلم في المرحلة الابتدائية. ولأن وائل كان يخرج قبالة بيت والده لأخذ متنفس ولو بسيط فلقد وقعت عين" سي محمد "عليه و

لحظتها لم يكن يعلم أن لسي عبد الرحيم ولد ،فما كان عليه إلا أن توجه إلى المتجر سائلا إياه :

-هل هذا الصبي ولدك ؟

-نعم.. هو ابني الأكبر.

-عجبا، أنا كثير التردد عليك لكني لم أره إلا اليوم أو ربما رأيته قبل ذلك ولكنني لم أكن أميزه عن بقية أطفال الحي؟

-لأنه لا يبرح البيت إلا قليلا. فأنا أتعمد عدم الإسراف في إخراجه إلى الشارع جزعا عليه.

-ولكن الا تدرك بأن هذا التصرف غلط . عليك أن تمنحه بعض الوقت لممارسة طفولته ويتعلم ويجاري أترابه ويجارونه ؟

- لا يهمني أراء الناس بالمرّة . هذه قناعتي و توجهاتي في الحياة.

فكر مليّا" سي محمد، " ثم أردف يقول:

-لي مقترح لك صديقي. أنا معلم كما تعلم . ما رأيك ان أسجله في المدرسة في الصف الأول ؟

لكن" سي عبد الرحيم "استغرب الطرح قائلا :

- نحن في منتصف العام الدراسي. بل نكاد نكون على مشارف نهاية فصوله .

لكن " سي محمد " بدد مخاوف صديقه قائلا :

-دع الأمر لي .أنا سأتصرف.

وفعلا ما إن بزغت شمس الغد حتى جاء " سي محمد " إلى صديقه طالبا منه- اصطحاب الولد إلى المدرسة التي لا تبعد سوى بمئتي متر عن المنزل- وبعضا من الوثائق الإدارية لتسجيله النهائي ، بغية مباشرة الدراسة من حينها فما كان من الوالد إلا قبول طلب صديقه. رغم إقراره بحداثة سن صغيره الذي لم يكن يتجاوز أعوامه الأربع و السن القانوني و العرفي لولوج الصبيان المدرسة هو ستة سنوات. وهو ما أبداه جهرا لصديقه المعلم الذي بدد مخاوفه وحيرته بأنه سيتكفل بالأمر كما أنه سيتعهده ويلقى عليه رعايته .

في صباح يومه التالي نهض الوالد كعادته باكرا للذهاب إلى متجره ولكن قبل ذلك أنهض وائل من نومه قائلا له:

- قم يا بني إلى المدرسة.فلم يفهم الغلام شيئا مما قاله مخاطبه. فعاد ونام وماهي إلا رمشة عين حتى أعاد الأب طلبه بصوت جهوري عال و كأنه يوبخه. فما لبث الفتى إلا ان قام كالجندي المغلوب على أمره منفذا للمطلب الأمر. و في عين اللحظة كان على وائل القيام بأشياء عدة وأن يطلق لعنان لتفكيره وخياله ليحلق بعيدا. كان عليه أن ينهض من فراشه و أن يغسل وجه وأن يلبس ثيابه وينتعل حذائه ويشرب قهوته و يرفع ورقة وقلما في يده . و كأنه في بداية العام ثم اتساقا مع ذلك عليه أن يفكر. وعديد الاسئلة تتزاحم في خياله اذا لو كان حال المدرسة مثل الكتاب ؟ كيف سيكون لوضع عندئذ ؟ هل ستتغير حياتنا

للأفضل ؟ ما نوع الأصدقاء الذين سأتقاسم معهم الصف ؟ هل سألتقي بأولئك الأشرار الذين التقيت بهم للعب معهم في شارعنا ؟ أم سيكون لي الحظ بالالتقاء بآخرين أكثر إنسانية وحنانا ؟ ما معنى مدرسة ؟ ما شكلها وما حجمها ؟ وغير ذلك من الأسئلة كثير .

في طريقه إلى المدرسة و في خطواته الأولى التي سارها برفقة معلمه الجديد " سي محمد " كان الغلام يلتفت يمينا و شمالا، شرقا وغربا، ثم إنه لم يكف لحظةْ التمعن في معلمه بغرابة. كان " سي محمد " طويل القامة سريع الخطوات كث الشعر، أسوده، تنبعث من عينيه الرقة والرأفة والصرامة كذلك.

الطريق المقصودة ليست طويلة ولا شاقة ولكنها كانت كذلك لوائل . إنه يحس بالخوف و الرعب كلما ابتعد عن المنزل. وأمام الصمت المطبق للمعلم زادت تلك المشاعر في النمو. لم يقلل قوتها سوى أمر واحدا.

أمام باحة المدرسة حيث وجد الأطفال يلعبون و يمرحون ومعهم صديقه وجاره في الحي " قصي " . فما إن رآه وائل حتى انشرح صدره و تبددت مخاوفه شيئا ما ، فانطلق يجري نحوه معانقا إياه في شوق وكأنه لم يره منذ ردح طويل من الزمن. ما إن تعانقا الصديقان حتى رن الجرس معلنا دخول التلاميذ إلى اقسامهم وجلوس كل تلميذ في مكانه فلم يجد وائل مكانا له حينها اضطر إلى القعود في آخر الصف الثاني بعيدا بمسافة بعيدة عن السبورة وهذا الأمر يعتبر إشكالا رهيبا له بالنظر إلى كونه يعاني من قصر النظر .

لم يكن له أن يرى الكتابة والرسم و الصور التعبيرية المعلقة بشكل جلي . ولأنه كان خجولا منطويا فلم يكن بوسعه البتة التصريح بذلك، لا لمعلمه و لا لوالده و السبب خوفه و

جزعه من ردة فعل والده المعروف بغضبه الشّديد. و كذا من ضربه له إذا طلب منه شيئا يدفع فيه نقودا كثيرة.وهذه إحدى أكبر أخطاء عبد الرحيم الذي يبدو أنه يعيش حالة من عدم التناغم في شخصيته. فهو في البيت وأمام أهله يتصرف بشكل غير الذي يتصرف به خارجه.

فالفتى عرف من والدته أن هذه المشكلة المتعلقة ببصره و لعلاجها، يجب عليه الذّهاب أولا للطبيب الذي يطلب نظير العلاج .ثم إن الامر لا يتوقف عند هذا الحد. حيث يجب شراء النظارة الملائمة بناء على وصفة الطبيب. وهذا أيضا يتطلب مالا و الوالد يعتبر هذه الأمور - على أهميتها - جانبية مقارنة بأمور اخرى يعتبرها أبلغ أهمية.

إن هذا الأمر لكفيل بتنغيص حياة وائل الذي بدأ يحس بمظاهر الكبر قبل اوانه . أصبح يستشعر قسوة الحياة و قهرها شيئا فشيئا. بدأ يعرف أن جحيم العيش وضنكها ، في ظل الظروف المستجدة في حياته ، ليست اقل شراسة وشرا من ما صادفه في الشارع من بعض من كان يعتقد أنهم أصدقاء إخوة هدرا.

لقد كان لطلبه - مضطرا -من والده عن طريق والدته التي طفق يرسلها أحيانا في شراء مستلزمات و أدوات الدراسة أمر آخر- بطعم العلقم - له بما لا يدع مجالا للريبة والشك. إن تلك الفرضية صحيحة و دامغة ذلك أنه يسمع بأذنيه هاته المرة كلاما نابيا قاسيا أصابه بجرح غائر من اقرب الناس اليه والسبب بسيط و الأب -على حاله - من أغنياء المدينة حينها. لقد أقسم الغلام على أنه لن يطلب من أبيه بعد اليوم او بالأحرى من لحظته هاته طلبا قطميرا كان أم فتيلا. لقد عقد العزم على أن كل الطلبيات التي يريدها

سيرسلها مع والدته التي لم يكن حالها بأحسن حال من ابنها الذي صار فلذة كبدها. إنها على استعداد لتحمل كل شيء في سبيل ان تراه ناجحا يكبر تحت عينها .إن الأمر يبدو أنه سيان بالنسبة لعبد الرحيم الذي يشتعل غيظا على كل من في البيت بسرعة.

انتهت السنة الدراسية بحلوها ومرها و قد تم اختزال ثلاث فصول في فصل واحد. أثبت فيها وائل تألقه ونجاحه وتحصله على علامات مميزة، أهلته للارتقاء إلى الصف الثاني رغم كل المواجع . إن لكل مجتهد نصيب وعلى هذا النحو ، فالغلام كان حريصا على دراسته وعدم التفريط فيها. ووالدته التي آلت على نفسها أن تساعده بمراجعة الدروس معه حال رجوعه إلى البيت وكذا مساعدته في شراء متطلباته إن عن طريق توسطها لدى زوجها أو شرائها لما تستطيع شراءه من مالها الخاص .

في غضون ذلك لم يتوقف وائل عن الدراسة بالمدرسة القرآنية للحي الذي يسكن فيه . لقد كان مقر الابتدائية التي صار يدرس فيها صباحا هو عينه مقر المدرسة القرآنية التي يلتحق للدراسة بها مساء . فأضحي لا يغادرها طوال اليوم ما إن يخرج من الكتّاب حتى يلج الى القسم والعكس . ولما آن أوان العطلة الصيفية صارت دروس المدرسة القرآنية أكثر كثافة، وهو مطالب بحفظ نزر كبير من السّور وفى عقله ووجدانه صرامة " حافظ " ، والحقيقة أن صرامته لم يكن هدفها التضييق على تلاميذه أو ضربهم. بل إن مقصده عدم إهدار الوقت ، واستغلال كل رفة عين أو دونها في تلقين كتاب الله عز وجل حفظا وقراءة وتلاوة، إلى كل طلبته دون تمييز. ثم إنه كان دائم التمني ان يمده الله تعالي بقوة و

إرادة وصبر بتدريس أكبر عدد ممكن من الناس بغض الطرف عن أعمارهم ومستوياتهم الدراسية ومراكزهم الاجتماعية.

لقد كان أيقونة وقامة مشهود لها ،خلقا و تواضعا وحفظا ممارسة لكتاب الله تعالى، ثم إنه كان ومن باب التشجيع والتقدير والتحفيز ينظم كل خميس قراءة جماعية لقصار السور . ينهيها بتقديم إكراميات للطلبة الأكثر حفظاَ وتأدبا ومعاملة. مما ترك أجمل الانطباع لديهم بأن يوم الخميس هو أجمل وأعظم الأيام على الإطلاق.

حافظ هو أيضا ذلك الرجل الطيب الذي زرع في وائل حب الطبيعية والازهار والنباتات. فكان دافعا إضافيا و سببا في نزعته الرومانسية واهتمامه الكبير بهذا الجانب . وائل صار عاشقا لغرس للأشجار متعهدا بكل النباتات التي يصادفها بكل ما يستطيع من قوة وجهد .لقد كان " حافظ " كثير التردد على حقول المدرسة أين استطاع غرس الأشجار خاصة الورود منها .وكذا تقليبه الدائم للتربة من أجل تهوية المكان . ثم قيامه بعملية زبر الأشجار المثمرة كل يناير وبداية فبراير من كل عام.

إن قيامه بكل هاته الأعمال نابع من قناعته بأن الإنسان فوق الأرض طوال مدة حياته فيها . هو صاحب رسالة قيميّة وهدف سام يجب عليه أن يعمل لأجل تحقيقه. وهو مسؤول بالنهاية عن كل ما يفعل بالنظر إلى أن الله تعالى قد جعله خليفة في الأرض .....وأنه تعالى لم يخلقنا عبثا هباءَ، وليس هذا فحسب لقد كان يريد تلقين أمر معنوي في مخيلة طلبته فبعض أولاده وأبناء وبنات أخواته كانوا يدرسون عنده .ولكن معاملته لهم كانت نفسها معاملة البقية .حتى لا يشعر أحدهم بأن هناك نوع من المحاباة أو المفاضلة

أوالتمييز. وهو الذي يرشدهم دائما إلى ضرورة العدل والمساواة بين جميع خلق الله دون اعتبار لنسب أو جاه او مال.....

كل هذه الدُّرر و الجواهر الخالدة التي يراها وائل كل لحظة من مدرسه جعلته ينظر إلى الحياة بنظرة تفاؤلية . من زاوية أمل وعمل لا من منظور ألم وفشل .كالتي تكونت في وجدانه عن سلوك أبيه نحوه وتجاه أفراد عائلته التي ضاقت ذرعا من ذلك .

و لما كان معلم المدرسة القرآنية من كبراء المنطقة علما وعملا. فلقد كان سديد النصيحة . ثاقب الرؤية مرشدا و موجها. متوسطا بالخير لكل من يتوسم فيهم الخير. بهذه الصورة النمطية كان شديد الحرص على أن يكون عضدا وسندا لتلاميذه النجباء بأن يقدم توصية عنهم لدى معلمهم في الابتدائية التي يدرسون بها. ومن محاسن الصدف انها نفسها التي يتدارسون فيها كتاب الله تعالى. ولقد كان حظ وائل بأن كان أحدهم .

تقدم حافظ إلى معلم وائل "سي محمد " الرجل الطيب بأن يكون مددا بعد الله لوائل. خاصة بعد إدراكه المبدئي بحالته النفسية و المعنوية وحتى المادية التي يكتنفها الغموض و التناقض .

ولأن الرياح تعادي جريان السفن فقد انتقل " سي محمد " إلى التدريس في مكان آخر. ليحل محله معلم لم يكن يشبهه لا خلقا و لا علما. ظل وائل يدرس عنده لمدة عامين كاملين تحالفت فيهما كل العناصر الموجعة عليه. نقاطه ومعدلاته الباهرة تداعت. مكانه الاول في الصف الذي أجلسه فيه معلمه الأول بسب قصر نظره تغير و صار يجلس في أقصى الخلف. حتى المعاملة لم تكن في أحسن حال فالفتى صار يلاحظ ازدواجية لها .

فريق من التلاميذ يعاملون معاملة الصف الأول ، و البقية كأنهم مجرمون. لم يكن نجوم الفئة الأولى سوى البنات " الشقراوات " اللاتي أتين من مناطق أخرى من هذا الوطن الفسيح .

هنا بدأ يدرك وائل مصيبة أخرى في الحياة إنها التزلف و الانبطاح أمام " الجميلات الصغيرات " وفعل أي شيء مباح أو غير مباح لإرضائهن و إبقائهن دائما نجمات ساطعات. و رغم حداثة سنهن الواضح إلا أن أمور ربما كانت بعيدة عن فهم وائل طانت تحدث ؟

يتطلع هذا النوع من المعلمين الذين كانوا يفتقدون للعلم والاخلاق والذوق على حد سواء. لقد تبادر إلى ذهنه أن الأمر يتعلق بوضع اجتماعي مريح وأفضل لأولئك الثلة من الناس . أو أنهم من جنس أو عرق فاخر .أو أن الله قد خلق فيهم أمورا او صفات يفتقد إليها أمثاله . أو أنهم اذكياء نبهاء فوق العادة فهم إذن مقدّسون و يجب عدم الاقتراب منهم أو محادثتهم فما بالك بالتعامل معهم.

انتقل وائل رغم الداء والأعداء إلى القمة الشماء . إلى صفه الرابع ابتدائي. متوسما انفراج الأوضاع وتحسن الحال. فهل كان الأمر كذلك ؟.

دخل العام الجديد . ودخل معه أمر جديد. لم يكن لوائل أن يعرفه. لقد أدرج في المقرر، دراسة اللغة الفرنسية ،لأنها اللغة الثانية في البلد . ظن وائل في وهلته الأولى أن معلما واحدا سيتولى تدريس المادتين . لكن اتضح له في ما بعد أن لكل مادة معلمها

ومعلم الفرنسية لم يكن بأحسن حال من صاحبه .لقد ضاق ذرعا من ممارسات الناس. وبدأت ثقته في نفسه تهتز وهو ليس بحال من الأحوال مستعد إلى أن يعيش لحظات مؤلمة أخرى.

كانت الحصة الأولى من نصيب الفرنسية. أين كان المكلف بتدريسها رجل لا تفارق العصا البنية الغليظة يده اليسرى و سيجارته وكبريته وطبشوره يده اليمنى. أراد بعصاه أن يظهر لتلامذته أنه ليس من النوع المتساهل . إنه يريد أن يبسط سيطرته على حصته. وأن يخرج الجميع من عنده بارعين في مبادئ اللغة الجديدة على أذهانهم . لم يكن لوائل أن يواجه صعوبات جمة . بالقياس إلى أن والدته عاشت في بيئة تضج بالثقافة الفرنسية.

لقد كان والدها يقطن بفرنسا أين اشتغل هناك ثم عاد إلى البلاد ليعمل بمؤسسة طاقمها وكوادرها كلهم فرنسيون وكذا الحال بالنسبة لأختها التي كانت تعمل بمؤسسة طاقمها وطريقة عملها توحي وكأنك هناك . هذا الوضع يسّر على الغلام أن يتعلم أبجديات اللغة الفرنسية من عند والدته التي لم تدخر جهدا في تنمية معارف صغيرها وإثراء مكتسباته و لو نسبيا . فانعكس ذلك كله على علامات ونتائج بأن تحصل على نقاط ومعدلات في مستوى التطلعات .

إلى ذلك لم يكن الحال سيّان بالنسبة لمادة العربية التي كان معلمها أسوء ما يكون، و بخاصة من ناحية المعاملة اين كان يتمادى في مغازلة تلميذاته بتبجح قلّ نظيره على مرأي البقية ومسمعهم . فتراه يركن إلى مناداتهن بأحسن الاسماء و يمشط شعورهن بيده

ويتحسس أجسادهن الصغيرة البريئة بأنامله العابثة .يحكي ويمرح معهن بل ويجلسهن على ركبتيه .

ما كان في صدر الطفل وائل من كراهية للوضع لم يدفعه إلى أن ينبس ببنت شفة .لأنه كان يعتقد على الاقل في منظوره الخاص البريء بأن ليس على المعلم اثم و لا ذنب ولا جناح فيما يفعل . مهما فعل او قال أو حتى نوى . فهو الإنسان المقدس الذي لا يخطئ وإذا اخطأ فإنه يسقط عنه العقاب .

وأمام هذا الزخم من الأحداث و المشاعر المختلقة في نفس الفتى. لم يكن وائل بحال من الأوائل في صفه رغم مجهوداته الجبارة التي لا ينكرها إلا جاحد، وسعيه الحثيث الذي لا يشق له غبار في ظل أوضاع متردية وقاسية .

لم يعد لوائل هواية اللعب في الشارع أمام القيود الصارمة التي رسمها له والده. ولم تعد له الرغبة في الدراسة عند هذا الصنف من المعلمين لقد صار متنفسه الحالي هو بيت الله تعالى. أين بدأ يعتاد الذهاب إلى المسجد للصلاة أحيانا بطهارة وكثيرا بدونها، وبأخطاء جسيمة في كيفية أداء الصلاة.

لقد كان لأمر الصلاة وعظمتها نصيب لمعلمه في المدرسة القرآنية " حافظ " الذي كان يحفزهم هم على تعلمها وأدائها في المسجد . إن الصلاة التي كان يؤديها الفتى لم تكن لتخلوا من الضحك والطرفة التي كان يقدم عليها رفقة بعض الأطفال الطائشين هناك. وهذا وجه التنفيس على وائل في تفكيره الصغير .على أن ذهابه وداومه على

الكتّاب كان أيضا وجها آخر لزرع الرّاحة في صدر الفتى ، فقد أصبح معلمه عمسيدي مصدر إلهام له طوال حياته.

انطلق وائل في دراسة عامه السادس والأخير من مرحلة التعليم الابتدائي، وكله أمل في نيل شهادة التخرج الأولى له في حياته . وما أثلج صدره هو تسمية معلمهم الجديد الذي كان محل حب وإعجاب من طرف كل التلاميذ الذين درسوا عنده. في الماضي . وعندما تناه إلى مسامع الغلام هذا الخبر الرائع ،عقد العزم أن يعود إلى أحسن مستوياته وهو ما كان له بالفعل عندما أحرز الشهادة بمعدل ممتاز معلنا انطلاقه نحو مرحلة تعليمية جديدة .

2. أيادٍ عابثة.

بالاتساق مع ذلك كان الوالد يحرز نجاحات باهرة في تجارته التي درت عليه أرباحا جيّدة . ليصبح ذا مركز مالي محترم ولأن متجره لم يكن بحجم تجارته اتساعا، فلقد قرر أن يؤجر مستودعا من عند جاره " الباجي " صاحب العلاقات الواسعة مع رجال المال والأعمال و النفوذ في المدينة . إن أمرا مثل هذا أحدث وقعا إيجابيا في نفس الوالد الذي تخلص إلى حد كبير من مشكلة تكدس بضائعه في كل مكان.

لقد كانت علاقات ثقة وصداقة تربط الرجلين إلى درجة انهما لا يحاسبان بعضهما في أمور عدة . فالمسائل المالية و رغم قيمتها إلا أنها لا ترتقي إلى حدوث نزاعات أو مشاحنات بينهما ربما كانت لطيبة وتسامح وأخلاق والد وائل دافعا هاما في مد جسور الأخوة والمحبة بينه وبين جميع الناس. أو ربما لحالة الرّهاب التي كانت تكتنف صدره من كل الناس أو بعضهم.

في أحد الليالي بينما كان سي عبد الرحيم نائما ببيته إذ به يسمع صوت باب المستودع يفتح. بيد أنه لم يبالي بالأمر كثيرا، فعدد من جيرانه لهم مستودعاتهم ويسمع لأبوابها نفس الصوت عند فتحها أو إغلاقها . فلربما كان واحدا منهم .ولكنه لما سمع أزير محرك شاحنة يبدو أنها ليست بالبعيدة عن البيت .

تضاعفت شكوكه بأن شيئا ما يحدث فقام من سريرة ولبس منامته بسرعة ثم توجه إلى متجره أولا فلم يجد شيئا. لكن ولأن المستودع ليس ببعيد فإنه أبصر شاحنة زرقاء مغادرة بسرعة البرق على مقربة من نهاية الشارع، وباب مستودع الكراء موصد بداخله جاره الباجي .دخل سي عبد الرحيم وألقى التحية على جاره :

-سلام الله عليكم. ، كيف الحال سي الباجي ؟

-بخير وأنت ؟

-بخير الحمد لله . لقد سمعت حركات غريبة مريبة، جعلتني آتي إلى هنا مسرعا. لا أدري ماذا حدث ؟

يضحك سي الباجي ضحكته الشهيرة، قائلا:

- هوّن عليك صديقي .لا شيء جاري الغالي أنا فقط من فتحت باب مستودعي بقصد إخراج بعض الأغراض الخاصة التي نقتلها عن طريق شاحنة أحد الاصدقاء .

تنهد سي عبد الرحيم وقد ترك جاره يغلق الباب قائلا له:

- تصبح على خير . المعذرة ربما أزعجتك، لقد دار في مخايلي أن احدهم جاء ليسرق .

رد عليه سي الباجي ضاحكا كعادته:

- لا تقلق جاري العزيز. ما دمت هنا فلا تدع الشيطان يميل إليك ميلا عظيما . تأكد ان كل شيء على ما يرام أنا حارس لمستودعي و للمستودع الذي أجرته لك .أمرهما يعنيني

بكل تأكيد . ثم من يتجرأ على الاقتراب قيد أنملة من ممتلكاتي .كل اللصوص يعرفون من أنا .

رجع سي عبد الرحيم أدراجه - واثقا في الخطاب الذي سمعه للتو من جاره المقرب - إلى بيته ليكمل نومه بعد ضنك يوم طويل من العمل .

بعد حوالي الأسبوع نفس المشهد يحدث . لكن سي عبد الرحيم لم يخرج من بيته جازما في تفكيره أن لا شيء يثير القلق.

في الصباح كعادته توجه الى عمله .حيث طفق الى إدراج سلعا جديدة داخل مستودع الكراء وفى الوقت ذاته أراد أن يتأكد بأن كل شيء على ما يرام وأن بضائعه ومحتوياته كلها بأمان، فكان له ذلك . ما بث الطمأنينة والسكينة في قلبه وتأكد أن ما حدث قبيل أسبوع لم يكن سوى أضغاث أحلام.

في أحدى الأمسيات الشتوية الباردة كانت الأجواء توحي بأن عاصفة ما قادمة. فالجو مكفهر و درجات الحرارة جد متدنية و الثلوج تلوح في الأفق البعيد. الشوارع تبدو وكأن لا أحد يسكن المكان. سوى الحوانيت و المتاجر التي كانت تعج بالحركة . فالناس يتبضعون تحسبا لأي طارئ. سي الباجي و كغيره من الجيران ها هو في محل صديقه لشراء ما يلزمه من حاجيات قد لا تكون موجودة في محل آخر ،و قد لا تكون متوفرة في حال صدقت التنبؤات الجوية. أمام هذا الزحف البشري الهائل لم يكن بوسع سي عبد الرحيم إلا إبقاء المحل مفتوحا إلى ساعة متأخرة من الليل رغم نيته السفر مع أحد

أصدقائه إلى خارج البلدة لقضاء بعض الحاجيات. وهو ما أعلنه لزبائنه عن طريق ورقة مسدله عند مدخل المحل مبدئا اعتذاره.

دقت الساعة الحادية عشرة ليلا. فما كان عليه إلا أن أغلق حانوته والتوجه إلى البيت لتناول عشاءه المتأخر وانتظار صديقه الذي سيسافر معه عند منتصف الليل حسب موعد ضرباه منذ مدة. لم يكمل الرجل عشاءه بعدما سمع أحدهم بطرق الباب فتوجه مسرعا والحيرة تعلو محياهن و سؤال واحد بقلبه (هل هذا صاحبي أم آخر)؟.

ما لبث أن فتح الباب حتى عرف أن الطارق ما هو إلا جاره الباجي الذي كان يعلم بسفريته . تهللت أسارير عبد الرحيم داعيا صديقه إلى الولوج وتناول العشاء معه .لكن الباجي تمنع بالقول إنه جاء ليقترح عليه توصيله إلى مقصده.

لقد حدث ظرف طارئ" لسي الباجي " جعلته ينزع نحوتغيير أجندته و السفر في مثل هكذا وقت. لم يكن أمام الجارين سوى انتظار رفيق سفر سي عبد الرحيم الذي أتى بحسب الموعد المرسوم .

فما إن دقت عقارب الساعة الثانية عشرة ليلا والدقيقة الخامسة ، حتى أقلعت السيارة التي تقل الرفاق تحت جو ماطر بارد. و رغم ما لهذا الجو من هيبة وخوف إلا أن المعروف عن سي عبد الرحيم عدم اكتراثه كثيرا بطبيعة و نوعية الأجواء التي يسافر فيها. فهو مغامر بطبعه ، ميال للتحدي.

انطلق الاصدقاء. وما هو إلا وقت يسير حتى بدأت الثلوج بالتساقط .ما صعب الرؤية الأفقية .و برغم ذلك فلقد أصر الجميع على مواصلة السير.

و عندما بقى من مسافة الوصول ما يناهز السبع كلومترات وأمام التساقط الكثيف للثلوج ،و تراكمه بشكل لافت. توقفت السيارة عن السير .الأمر الذي اضطرهم إلى إكمال باقي السكة سيرا على الأقدام أمام عدم وجود أيه وسيلة يستعينون بها للوصول إلى مقصدهم .

وصل الجميع بخير بعد عناء كبير . فتوجه كل منهم - بعد ان ناموا بضع ساعات في منزل أحد معارف سي عبد الرحيم - إلى قضاء حاجياته ولما أتموا ذلك، رجعوا إلى المكان الذي تركوا سياراتهم فيه و برفقتهم ميكانيكي تبدو عليه ملامح القوة والسرعة و البديهة.

لم يستغرق الأخير في عمله سوى بضع دقائق حتى أتم إصلاح المركبة المعطلة . قبض أجرته ثم انصرف . كانت الطريق لا تزال محفوفة بالمخاطر بسبب بقاء الثلوج متراكمة. رغم تحسن الجو. فما كان عليهم إلا السير ببطء لتجنب خطر الانزلاقات. وبعد جهد ووقت عاد الجميع سالما غانما إلى المكان الذي انطلقوا منه .

دخل سي عبد الرحيم إلى بيته ليأخذ حماما ساخنا .صل في المسجد مع الجماعة ثم انطلق ليفتح محله الذي كان بحاجة إلى بعض السلع و المواد الموجودة بالمستودع. كان من الضروري الذهاب نحوه في حينها كي لا يعطل مصالح الناس.

لكن ما إن دخل سي عبد الرحيم المخزن حتى أصابه الذهول لما حصل. لقد رأى موادا وسلعا قد سرقت ، بيد أن المستودع لا يوحي شكله بوجود آثار سرقة ونهب. فالسلع المتبقية مرتبة على نحو يعطي الانطباع أن من سرق اخذ كامل حريته وراحته عند

ممارسته لفعلته الشنيعة . الأمر الأكثر إذهالا هو قفل الباب السليم الذي لا يبدوا عليه اثار التهشيم أو التكسير. إنه لأمر يثير الجنون والاستغراب .

أمام هذا الطارئ لم يكن على عبد الرحيم سوى مباشرة الإجراءات القانونية بالتوجه إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن الحادث.

لم يكن عسيرا على فرقة التحريات معرفة هوية السارق. بعد أن رفع سي عبد الرحيم دعوى ضد مجهول. لقد أقفل الموضوع على اعتراف المجرم بفعلته المنسوبة إليه . لم يكن المجرم سوى صديق و الد وائل صانع ومصلح الأقفال .

ففي يوم فائت وبعد انكسار القفل الخاص بالمستودع، استعان عبد الرحيم يه بغرض إصلاحه .حيث جاء بقفل جديد و نسخ أصل المفاتيح و احتفظ بها مدة من الزمن . ولأنه صديق للوالد و زبون دائم فلم يكن صعبا عليه أبدا معرفة أن صديقه مسافر في ليلة سابقة.خاصة وأن عبد الرحيم علّق ورقة بها عبارة توحي بسفره. الأمر الذي ساهم في تنفيذ صانع الأقفال لخطته الدنيئة والانقضاض على المستودع واخذ كامل راحته في ذلك.

ولأنه معسور الحال مدين لكثير من الناس بسبب اسرافه وتبذيره للمال ، لدرجة أصبح معها هكذا وضعه . فلقد رق قلب عبد الرحيم على صاحبه الصانع المدعو " بوكادنة " حيث تنازل عن حق متابعته بإثبات محضر صلح و ترضية وهو صنيع رائع من عبد الرحيم لصاحبه الذي توهج وجهه فرحا شاكرا هذا العمل الرشيد.

بوكادنة معروف في أوساط البلدة بأنه صانع أقفال محترف . وعلاوة على ذلك فله عديد المؤهلات والحرف، قلّدته لأن يكون أحد أشهر الناس شعبية في المدينة . إنه كذلك صاحب الجيوب المليئة بالحلويات والتي كان يقدمها للغلمان إنه وجه مشرق لرجل بائس ضائع لم ينس الناس بحال من الأحوال احترافه للسرقة والنصب والانتشال والاحتيال. إنه الرجل الأكثر تناقضا وغموضا بين سكان المدينة .

ظروف ومشاغل ومشاكل سي عبد الرحيم أثرت عليه كثيرا في تنفيذ التزاماته وواجباته الأسرية الكثيرة . في لحظات كثيرة ينسى أن له أطفالا و زوجة يحتاجون إليه معنويا أكثر مما يحتاجونه ماديا أمام صعوبة الحياة و تشعبها.

إن كفاح ونضال الزوجة على جميع الأصعدة لم يعد كافيا. إنها تحتاج إلى زوجها عصبة و قوة ورقة .تحتاجه ليقف معها ،يمسك يدها لينطلقا سويا في معترك الحياة . والهدف جعل البيت أكثر سعادة وجمالا . إن أبنائها اليوم في سن حرجة وهم بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى الأب و الأم معا وعلى حد سواء .

وائل الآن صار يبلغ من العمر عشر سنوات كاملة. لقد أصبح يجب الخروج إلى الشارع القريب من شارعهم، واللعب والتمتع فيه. ترى ما الجديد الذي فتح شهيته هكذا؟ وهو الذي ضاق ذرعا من كل المحيط الذي يعيش بين دفتيه -من ربط جسور صداقات مع الآخرين، ومن الخروج من المنزل إلا للدراسة- .

لقد أصبح وائل يحب. نعم يحب فتاة من بنات الجيران . إنها نسرين الجارة الجديدة ابنة الاحدى عشرة سنة. والتي تدرس في الصف الابتدائي وستنتقل حديثا إلى المرحلة المتوسطة، مثل وائل .

نسرين فتاة جميلة طويلة الشعر أسود، كبيرة العينين. لم تكن كثة الرموش ، طويلة نحيفة، خصلات شعرها تنسدل على جبهتها الجميلة . لم تكن تدرس جيدا في عمومها ، حيث إنها كانت تحتل المراتب الاخيرة في صفها.

ولأنها مهوسة باللعب في الشارع مع أبناء الحي ولجمالها الاخاذ . فلقد كان جميع الفتية يرغبون فى ربط صداقة بها واللعب معها أطول وقت ممكن.

لقد كان وائل من بين الأطفال الذين أصبحوا يحلمون بالخروج حتى في منامهم .وأمام رغباته الكبيرة في ذلك، زاد والده من حجم متاعبه بأن أرجعه إلى البرنامج القديم المقيد لحركاته. ما أثر كثيرا في نفسية الولد. يريد أن يخرج دائما فلا يستطيع. ويرغب باللعب معها جنبا لجنب فلا يقدر . نعم إنه لا يستطيع مجاراة أصدقائه وأبناء الجيران في لعبهم وتقربهم من نسرين. إنه يرقبهم من بعيد فلا يقدر الاقتراب بنصف خطوة ، لقد كان يرقبها بنظراته البريئة في كل حركاتها وسكناتها . ثم ما إن تنظر إليه بابتسامته تعلو محياها حتى يحمر وجهه ،ويطأطئ رأسه وترتعد فرائصه، وينبض قلبه عند السرعة 300كلم / د . لقد شعر الجميع بالوضع فأصبحوا يمدّون تعليقاتهم السخيفة المتلكئة على وائل مدّا .

إنهم يدركون مدى خجله ويعلمون مدة نظرها إليه في إعجاب ووله. ربما لأن الغلام أجمل منهم فهو طويل الشعر أسوده ، كحل العيون طويل رموشها ،خمري اللون، بديع النظرات . خفيف الحركات . جذّاب بلا عذاب ؟.

لقد زادت تعليقاتهم وكثرت حكاياتهم، فما كان على الفتى إلا مغادرة المكان والاستسلام مجددا للبقاء في المنزل والنزوع إلى الوحدة والانطواء. مرت أيام الصيف مسرعة كأنها البرق . إن وائل يدرك ويعلم أن نسرين تدرس في نفس الصف وارتقت معه إلى طور آخر من التعليم .كان يحادث نفسه وربما يمنيها الوقت الطويل. هل سيكون برفقتها في نفس المدرسة والأجمل أن يكون معها في نفس القسم، فهناك لا يجد اولئك الصبية المقرفون. وهناك قد يستطيع التمعن فيها بدون حواجز وبدون قيود وربما حتى الكلام معها ولو بكلمة واحدة. نعم إنها لحظات جميلة هادئة تلك التي يكلم فيها وائل نفسه عن مشروع نسرين .

في ليلة عودة التلاميذ إلى مقاعد دراستهم. ظل وائل يروح ويجئ بين جنبات البيت، من أجل تجهيز نفسه للموعد المنشود. قام بكل ما يجب القيام به ثم خلد إلى النوم مبكرا وفى باله- أن أنام مبكرا سأستيقظ مبكرا- ولما بزغت شمس الصبيحة وأسدلت خيوطها البراقة على كل مكان ، كان عليه التوجه سريعا إلى مدرسته الجديدة البعيدة عن مقر سكن والده ، وفى باله شغف وحب طلع لما هو قادم.

وبينما هو في الطريق سمع صوتا غليظا مرعبا يناديه تلفت يمينا وشمالا فلم يجد أحدا، ثم سمعه تارة أخرى فتلفت خلفه ، فاذا به يبصر رجلا عظيم الجثة يلبس ملابس غريبة

مخفيا وجهه بلثام، تبدو عليه مظاهر الشر . ارتعدت فرائص وائل، وشلت حركته أمام هول المنظر الذي لم يعتد عليه . تقبّض الرجل على الفتى بسرعة وبدون رحمة ولا شفقة . وأخذه معه في سيارة سوداء مع شخص آخر إلى وجهة غير معروفة .

لم يلتحق وائل بصفه طيلة الصباح حتى انقضى موعد الدوام . وعاد الكل إلى منازلهم إلا هو . انتظرت عائلته مجيئه ، لكن لا شيء من هذا حدث.

أمام هذا الوضع كان على سي عبد الرحيم التوجه إلى المدرسة للسؤال عن الفتى. بيد أنه لم يجد ضالته. ليعود أدراجه. لكنه عقد العزم أمام سرعة الوقت وصعوبة الموقف إلى الشرطة للإبلاغ عن الحادثة. لكن في سعيه إلى ذلك ، اذ به يسمع صوت رنين هاتف البيت . رفع السماعة فإذا بأحدهم يخاطبه:

-كيف حالك سي عبد الرحيم ؟

-بخير. ولله الحمد على كل حال . من أنت لو سمحت ؟

-لا تقلق بشأن ابنك وائل .إنه بخير .

-لم أفهم.. من أنت؟ ماذا تقول ؟ وأين ابني ؟

-قلت لك لا تقلق سيدي. سيكون ولدك عندك متى ما أردت. الأمر متوقف عليك . فقط عليك بدفع مبلغ مالي بسيط. لن يكون بحال من الأحوال أكبر وأعظم من قيمة ابنكم المصون .

عندها أيقن سي عبد الرحيم أنه أمام عصابة لسرقة الأطفال. فكيف سيتصرف ؟هل سيبلّغ الشرطة بما يجري ؟ أم أنه يسعى فقط للخلاص بابنه، ولو دفع مال الدنيا كلها، وكف أي أذى قد يلحق به حال التبليغ . أمام وجوب سرعة الرد، كان عليه تحكيم الخيار الأول بدون تردد فرد بعد تردد وصمت ، وبصوت الخائر المكدود:

-ما مبلغ الفدية المطلوب مني ؟

-مائة ورقة .

-ماذا تقول إنه مبلغ كبير ،هذا هراء ؟

-إذن أنت لا تريد ابنك ؟

-دعنا نتفاوض، ربما نصل إلى حل وسط ؟

-لا تفاوض، وهذا آخر كلامٍ لي .

لم يطل الخاطف الحوار مع عبد الرحيم . وجّه السماعة إلى الطفل ليؤكد للوالد صدق كلامه . وفي عين الوقت إلهاب مشاعر الأبوة فيه. مسك الغلام سماعة الهاتف وانبرى يتمتم بصوت خافت حزين :

-بابا... بابا انقذني منهم، أنا هنا و أريد أن تأتي لتأخذني ....

قاطع الخاطف الحوار قبل أن يبدأ. واستطرد في كلامه مع عبد الرحيم :

-ها أنت قد سمعت كلام ابنك وقد اطمئن قلبك ،لا أظن أن مبلغا تافها كهذا يحول دون رؤيتك مجددا لولدك ؟

- قد قبلت بعرضك.. يرد عبد الرحيم مبدئا تذمره الشديد وأسفه العارم.

تهللت أسارير الخاطف عند سماعة صيغة الموافقة ، وبالتالي ضمان مبلغ الفدية وأردف بالقول:

-مكان الالتقاء أنا من سيحدده وإياك من أي تهور أو أي حركة بهلوانية ، قد تفسد العملية برمتها . وتنسفها نسفاَ .احذرك من مغبة ذلك.

اتفق الطرفان على الزمان والمكان. و الموعد المرسوم بدقة. أغلق الخاطف الخط حينها ،و ترك عبد الرحيم في دهشة و حيرة إزاء العملية برمتها .

لم يستطع الوالد التفكير في صمت. خاصة وأن المدة المحددة التي قدرها الطرفان لا تتجاوز الأربعة والعشرين ساعة.و أمام هذا الضيق الفظيع في القلب وفي الوقت أراد عبد الرحيم أن يشاركه أقرب الأقربين منه المشورة. لقد تضاربت أراءهم بين مساند و ممانع إزاء قضية تبليغ الأمن . ثم إنه يترجى صياغة خطة برفقتهم للإيقاع بالمجرمين المختطفين .

عند تمام الواحدة زوالا من يومهم الموعود . تواجد عبد الرحيم قبل الوقت بساعة ومعه مبلغ الفدية كاملا غير منقوص ، لكنه لم يكن لوحده لقد جاء معه شخص آخر ، صديق له ، وقف الرجلان مسافة من الموقع يراقبان كل التحركات . سار عبد الرحيم بضع

خطوات إلى الأمام ليتفاجأ بسيارة مسرعة تتقدم بجنون نحوه. توقفت و نزل منها رجل ملثم يحمل حقيبة سوداء. في حين بقى في السيارة طفل مستتر الوجه، و رجل آخر ملثم يبدو عليه وكأنه كبير الجثة. تقدم من عبد الرحيم الرجل الملثم الأول الذي نزل لتوه من السيارة قائلا له:

-أنت عبد الرحيم ؟

-نعم بكل تأكيد .

-أين الأمانة ؟

-إنها بالسيارة.. سلّم تستلم.

ينادي الملثم الأول صديقه الآخر الملثم الثاني الموجود بالسيارة:

- دع الفتى يأتي إلى هنا.

فتح الباب و نزل الطفل برفقة الملثم صاحب الجثة الضخمة. و توجها نحو الملثم الأول . ينادي الملثم الأول للوالد، ويطالبه بالأمانة ..

أمام قوة المشهد. انبرى عبد الرحيم لتسلم ولده المختطف ،فيسلم المبلغ للملثم الأول الذي يضعه في الحقيبة. و يمنح الطفل إلى عبد الرحيم ثم يسرع مهرولا نحو السيارة .

اسرع الوالد لنزع الغطاء من وجه الطفل ، لكن يا للدهشة .إنه ولد آخر غير وائل. اندفع الملثمان جريا نحو السيارة، فتعثر صاحب الجثة الضخمة بعد اصطدامه بحجر ليسقط

أرضا .وأمام بطء حركته لحق به عبد الرحيم الذي اندفع معه صديقه الذي اتى بصحبته. استطاع الصديقان أن ينزعا اللثام عن الرجل . يا للهول إنها مفاجأة أخرى.

لاذ الملثم الأول بالفرار تاركا صديقه لوحده يصارع الرجلان بقوة وشراسة .كانت معادلة الصراع غير متكافئة من بدايتها فسي عبد الرحيم لم يكن ذلك الرجل المتعود على مثل هكذا مواقف و تصرفات. أما صديقه الذي جاء معه فقد كان أعرج الساق بطئ الحركة رغم شجاعته واندفاعه واستبساله. أمر آخر صعّب من مهمة عبد الرحيم وصديقه ،لقد كان لإشهار الملثم لسلاحه أثر بالغ الغور على إنهاء المعركة وحسمها ضد رجلين أعزلين.

لاذ المجرم الثاني بالفرار وتوارى تماما عن الأنظار. أما سي عبد الرحيم فقد كان يكبّر تارة و يلوم صديقه تارة أخر بسبب معارضته -عند رسم الخطة - إبلاغ قوات الأمن للمجيء معهما ومن ثمة تطويق المكان . فالموقف جسيم و الوقت سلطان في مثل هذه المسائل أثير.

نفض الصديقان التراب من على ملابسهما و توجها رأسا إلى قسم الشرطة ، للإبلاغ عن الحادث من بدايته و تحرير محضر بحيثيات الواقعة . و يبدو من خلال الحوار الذي دار بين عبد الرحيم و محافظ الأمن أن الأخير قد أبدى امتعاضه ولومه الشديد عن تأخر الإبلاغ لهذا الوقت متسائلا ذات الوقت عن الجدوى من وراء ذلك فرد عليه:

-سيدي، لم أقم بالتبليغ مباشرة ليقيني الشديد أن مثل هذا النوع من العصابات لا أمان فيهم. فابني رهينة عندهم والمال بالنسبة لهم أهم وأعظم من كل شيء.حتى لو سقطت في سبيل أطماعهم نصف البشرية أرواحا .

رد عليه المحافظ :

-لكننا محترفون ولنا خططنا الدقيقة للإيقاع بمثل هؤلاء. نحن نجفف بؤر الفساد والجريمة بشكل يومي حفاظا على المجتمع.

رد عليه عبد الرحيم :

-لقد اعتراني هلع شديد من الوضع ككل و أردت حلولا سلمية.

لكن قاطعه المحافظ قائلا :

-لقد عرّضت نفسك للخطر والعملية كلها للفشل وها هي النتيجة كما ترى .عموما لقد سجلنا كل شيء امض على المحضر وسنستدعيك حال ظهور أية مؤشرات. وبالمناسبة أفضّل أن تبقى بعيدا لأجل سلامة ابنك ولإنجاح الخطة .

انصرف عبد الرحيم من مخفر الشرطة متوجها إلى بيته لكي يطمئن زوجته وأفراد أسرته بأن الوضع مستتب و على ما يرام و أن وائلا بخير . لكنه لم يرو لهم تفاصيل أخرى خاصة ما تعلق بالشجار العنيف مع المجرمين المختطفين.أتم كلامه ثم توجه مرهقا إلى محله التجاري. حيث لم يلبث إلا دقائق معدودات راجعا إلى بيته من قوة وجعه وألمه النفسي والجسدي من جراء الذي حدث .

في صباح اليوم الموالي تجاسر سي عبد الرحيم على نفسه واستعان بالله للاسترزاق، وقد دعا الله تعالى بالفرج والتمكين آخر سجدة من صلاة الصبح التي أداها كعادته في مسجد الحي الذي يسكن، على أن ينجي فلذة كبده و يرده سالما غانما.

وما هي إلا لحظات حتى أتت شاحنة نقل المواد الغذائية وبيعها من أجل تزويد المحل بحاجياته. فتح لهم والد وائل باب المستودع - المخزن - لتوضيب وإدخال اللوازم ثم جرّدها ودفع المستحقات. وما إن أنهى العملية حتى همّ بالعودة إلى محله ليجد " حافظ " مدرس وائل في المدرسة القرآنية في انتظاره. ولأنه يعزّ على عبد الرحيم كثيرا لأخلاقه وحسن معاملته و تدينه وكذا للحظات الضعف العاصفة التي صار عبد الرحيم حبيسا فيها ، فلقد ارتمى في حضنه وقبّله في رأسه باكيا والأنفاس تنقطع و تكاد تنفد من صدره .

ثم بدأ في سرد الواقعة المريرة لكن " حافظ " قاطعه قائلا:

- أتبكي والله ربك لا تنس بأن الانسان خلقه الله في كبد. ضع نصب أعينك بأن الله لم يبتليك إلا لأنه يحبك .وتأكد يقينا بأنك لست الوحيد فوق الأرض فكل البشر لديهم ظروف ومشاكل ومشاغل لا يعلمها إلا الله. كن قويا أنت صاحب معروف و صنيع خير ، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء. اسمع لقد رأيت لك رؤيا البارحة بان فرجا قريبا ونصرا مؤزرا سيثلج صدرك وبأن خبرا آسرا آتيك ليغير حياتك نحو الأفضل فاصبربل اصطبر و تذكر أن بعد العسر يسرا لقد كان هذا الخطاب كفيلا بإرجاع الحياة إلى جسد عبد الرحيم .

إنه اليوم وفى ظل هذه الظروف بحاجة ماسة إلى من يشد من أزره و يبث فيه روحا معنوية . انصرف حافظ تاركا صديقه يبتسم ابتسامة رضاء و راحة .فكر في نفسه وقال خبر مثل هذا حري بزوجتي وأبنائي أن يعرفوه .أوصد باب المحل و توجه إلى البيت روايا لهم ما حدث والكلام الذي بشره به صديقه.

في بيت نسرين، الجيران الجدد في الحي والذين كانوا على مرمى حجر من منزل وائل .كانت هنالك حركات مشبوهة و مريبة تشوبه . فوضى عارمة دخول وخروج وطفلة تبكي لقد كانت تلك الفتاة هي نسرين ليس إلا. لم يكن يخفي على أطفال الحي مدى تغير طباعها وتبدل تصرفاتها، لم تعد تكترث كثيرا للّعب وللهو معهم. ولأن الأطفال لا يكفون التهكم عن الآخرين، فلقد صاروا يستفزونها بوائل ،لقد ترجموا الأمر بكون الفتاة متأثرة بغياب وائل عنها لكن هل كنت هذه كل الحقيقة أم جزءا منها دون الآخر المتواري ؟

جاء الغد ليحمل معه شيئا عجيبا فبينما كان سي عبد الرحيم في محله، حتى دخل عليه رجل لا يعرفه أقرأه السلام ثم أردف يقول:

-ليس لدي وقت ولست مضطرا لأن تعرفني .إن ابنك وائل في مستودع مهجور، لونه بني، قرب كوخ في أرض زراعية مدخل قرية " سنبل " .ثم همّ بالانصراف مسرعا بيد أن صياح الوالد جعل بعض الجيران يهرعون صوب الرجل للقبض عليه .ليعترف أمام إصرارهم بما لم يكن في الحسبان. اعترافات جعلت عبد الرحيم ينصرف مسرعا نحو مخفر الشرطة ليدلي لهم بكل ما لديه من تفاصيل جديدة صادرة عن شهادة الرجل المقبوض عليه والذي و أمام إصراره و ترجيه تم فك قيده وتركه لحال سبيله .بعد أخذ

عنوانه ورقم هويته ، تيقن الكل من أن صاحبهم فاعل خير ولن يفيدهم بشيء أكثر مما أدلى به على الأقل في الوقت الحالي، ثم لخوفهم من أي بطش قد يلحق به من مجموعة الأشرار تلك .والهدف بعد ذلك كله درء ضياع الخطة المرسومة .

رتبت قوى الشرطة لعملية مداهمة للمكان المفترض عند الساعة الواحدة صباحا .عند وصولها انتشرت بسرعة وبكثافة وكذا بهدوء رهيب في مكان يعطي الانطباع بوحشته من جهة و بهدوئه من كل ضجيج أو حركة من جهة أخرى .

دخلت أفراد الشرطة إلى المستودع المهجور لتجد أطفالا وعددهم ثلاثة مكبلي الأيدي والأرجل وبالقرب منهم دلو ماء وبعض القارورات الفارغة وخبز يابس مبعثر. لكن المذهل حقا أن المستودع خال من أي رجل من رجال العصابة . فك رجال الشرطة الأطفال من أغلالهم وأصفادهم و توجهوا بهم إلى السيارة. لقد كان وائل بينهم في حالة جسدية ونفسية كارثية شأنه شأن البقية من الأطفال المختطفين .

توّجه الجميع إلى المخفر وهناك تم التعرف على هوية الصبية كلهم تمهيدا لإلحاقهم بذويهم . رجع كل منهم إلى أهله سالماً معافىَ .وكذلك عاد وائل إلى حضن أسرته بعد غياب قسري قهري موجع حتى النخاع.

لم تتوقف تحريات الشرطة هنا، بل بالعكس لقد بدأ عملها بشكل أكبر وأوسع فهي الآن تريد التقبض على فلول العصابة المثيرة للهلع وسط السّكان بأي ثمن كان و مهما كلفها الأمر من مغرم.

لقد بدد الجميع مخاوف الرجل المبلغ عن الموقع دافعين إياه بضرورة الاعتراف بكل شيء أمام الشرطة التي ستوفر له الحماية والأمان لا محالة .وأمام هذا الأمر لم يكن عليه سوى الرضوخ لهم ولمطلبهم .

لقد جاء في اعترافه أنه حارس خاص بالمستودع وبأن أفراد العصابة عددهم ثلاثة ، وبأن الدافع الرئيس الذي جعله يعترف هو تأنيب ضميره الذي ظل يعاقبه ردحا من الزمن ،لكن الملفت في القضية وهو أمر حري بأن يزيد من صدمة وائل و هو أن فردا من أفراد العصابة لم يكن سوى والد نسرين الذي ضرب عرض الحائط كل القيم والعادات. لقد انبرى ليفعل إجراما شنيعا في حق جيرانه . ثم هل لوائل أن تظل صورة الفتاة- التي تمثّلها في كل مكان من جنبات وجدانه -كما هي. أم ستغير كتلة الأحداث تلك رأيه و موقفه وتفكيره مائة و ستون درجة.

ظلت تحريات فصيلة أبحاث الشرطة قائمة ، وهي التي عاهدت والد وائل بإماطة اللثام عن خيوط وتفاصيل الجريمة والكشف عن هوية العصابة التي يبدو أنها متخصصة في سرقة الصبيان وابتزاز أسرهم واستعمال العنف والترويع للوصول الى مبتغاها. وقد حصل بالفعل أن تم القبض على رؤوسها الثلاثة واستنطاقهم والتحقيق معهم ثم تقديمهم إلى العدالة.

إن ما حصل لم يخطر ببال عبد الرحيم .حيث أنه في الوقت الذي عاد فيه ابنه كان كثير التفكير منشغل البال وكانه يفكر أو عازم على الإقدام على فعل شيء . وما هو إلا يوم واحد حتى قام بإحضار شاحنتين إلى مستودع محله. حيث قام بنقل جميع ما فيه إلى

مكان اخر. ثم قام بتسليم المفاتيح إلى جاره الباجي الذي لم يفهم المغزى من وراء تصرف صديقه .حيث و رغم الحاحه على معرفة الدوافع الكامنة وراء ذلك إلا أن عبد الرحيم التزم الصمت المطبق وطفق يطمئن جاره بأنه سيفصّل له كل شيء ولكن ليس في لحظتهم تلك.

رجعت الشاحنتان مرة أخرى لكن هذه المرة إلى المتجر، حيث نقلتا كل ما فيه إلى ذات الوجهة التي أتت للتو منها. لم يفهم كذلك الجيران مقصود وهدف جارهم العزيز على قلوبهم. ربما أراد عبد الرحيم التكلم في صمت أو بإشارة فحسب من خلال يافطة علقها على باب محله قال فيها:

- قضيت معكم أحلى أيام شبابي، كنتم أهلي و عشيرتي، أن نفترق هذه سنة الله ، أطلب منكم جميعا الصفح والعفو.

3.في البيت الجديد.

في صباح اليوم الموالي قام عبد الرحيم بإيقاظ جميع أفراد أسرته باكرا . فبعد أن صلى الجميع صلاة الصبح، أمرهم بإخراج جميع المتاع والأغراض خارجا حيث كانت شاحنة صديقه بالانتظار. حيث تمت تعبئتها بسرعة فائقة، ليقوم عبد الرحيم بعيدها بنقل زوجته و أولاده في سيارته المرسيدس البيضاء. منطلقا قبل الشاحنة .

في غضون ذلك كان وائل ينظر إلى كل شيء .لقد فهم أنهم راحلون إلى بيت آخر جديد. أمر مثل هذا جعل مشاعره يصيبها غثيان ودوار بشكل عنيف. يبدو أن في نفسه أحاسيس الفرحة بخروجه حديثا من أنياب ومخالب العصابة .و كذا بانتقالهم إلى منزل قد يكون أفخم و أوسع. لكن أيضا مشاعر الحزن و الألم تعتريه، لأنه غادر المكان الذي تسكن فيه نسرين. إنه يذرف عبرات ولا تكف يده أن تكفكف خط الدمع السائل المنهمر. بدأ يتمعن بقوة في أرجاء السماء. والشمس تضرم في الأفق شعلة ذهبية . ربما كانت عديد الأسئلة تتزاحم في عقله يقول :

-هل سألتقي مجددا بها ؟

و هل سأبقى في المدرسة التي وجهوني إليها أم سيغيرني والدي إلى أخرى ؟

ولماذا فعل أبي هكذا في هذا الوقت بالذات ؟

و هل سيكون وضعنا الجديد أفضل ؟

و هل سألتقي مجددا بالعصابة التي اختطفتني ؟... هذه الاسئلة لم يكن بحال من الأحوال ليملك الإجابة عنها. ببساطة لأنه لم يفهم شيئا من الذي يحدث معه.

لم تكن سوى مدة بسيطة حتى وصل الجميع إلى بيت واسع جميل به مستودعان وحقل. لم يكترث الوالد لأسئلة أفراد أسرته الذين لم يفهموا شيئا من الذي يحصل لهم . دخل الجميع باحة المنزل بأرجلهم اليمنى وعبارة بسم الله والحمد لله ولا إله الا الله والله اكبر، تلهج بها ألسنتهم. يردد الأب وهم يعيدون. الآن وقد صلوا فقد آن له أن يوضح لهم الصورة قائلا:

-هذا بيتنا الجديد أبنائي. وقد بدأت في بنائه قبل مدة من الزمن، ولكن ظروف كثيرة جعلتني أقرر الإسراع في إجراءات الرحيل من بيتنا القديم .احمدو الله عز وجل على فضله وجوده و كرمه.

اندهشت مربية وائل من الأمر قائلة :

-ولكننك لم تخبرني قط من قبل ؟

رد عليها:

- كنت أريد أن يبقى الأمر طي الكتمان، كي أجعل للمفاجأة وقع طيب وأثر جميل .

اردفت تقول بعد صمت:

-هل ملكية المنزل لنا أم هو عقد كراء ؟

رد عليها :

-بل ملك لنا .

بعد أن بدأ الاطفال يرتبون الأثاث المبعثر يمينا وشمالا، أمرهم أبوهم بالتوقف قليلا ليريهم المستودع الكبير والصغير حيث قام بترتيبهما سابقا. فجعل واحدا كمتجر صغير والآخر للتخزين . رجع الجميع لأخذ قسط من الراحة وتناول طعام الإفطار. تجمع الكل حول المائدة يأكلون ويشربون، لكن وائل لم يكن يشاطرهم الكلام ولا حتى الأكل إنه يتأمل ويفكر .

ظن الجميع أنه لا يزال في صدمته لكنه يفكر في نسرين يريد أن يرجع إليها للعب معها ،أو يريد أن يأتي بها لتشاركه فرحة البيت الجديد .و في لحظة فارقة التفت أم وائل إلى زوجها فوجدته هو الأخر يفكر ويلتفت إليها كل مرة و كأنه يريد إخبارها بشيء ما ثم يتردد .نظرت إليه برهة. ثم قالت له بعد أن أمرت الأولاد بالانصراف :

-عبد الرحيم منذ أن عرفتك، عهدتك قليل الكلام حتى في القضايا والأمور المفصلية في حياتنا . هل تدرك أن هذا الأمر سيء بالنسبة لك ولي على حد سواء ؟

رد قائلا:

-أنا هكذا .

لكنها ردت عليه باستغراب:

-لكنك لست كذلك مع أصدقائك ؟ لطالما تجالسهم وتسترسل في الكلام معهم مددا طويلة .

أجابها :

-أنا لا أتكلم معك كثيرا لأنني لا أريد أن أشغلك معي في أمور لا تجيدها النساء بل لا تقدر على حملها وهي صميم عمل الرجال .

ردت عليه:

-ولكن الرسول محمد عليه السلام- وهو قدوة لنا - كان يستشير و يأخذ براي زوجته خديجة رضى الله عنه و أرضاها .

اجابها :

-ولكنك لم تسأليني عن ظروف وملابسات هاته السّرعة في التنقل إلى بيتنا هذا ؟

-كنت سأسلك ولكن كنت أتحين الفرصة فقط .

-أنت ترين بأن البناء هنا لم يكتمل بنسبة مائة بالمئة ولكن دفعني أمران اثنان إلى الرحيل والمجيء إلى هنا . أمر تعرفينه وآخر ستعرفينه لأول مرة .

شدّ قول عبد الرحيم انتباه زوجته التي أثار فيها مكامن الخوف قائلة له:

-لم أفهمك ؟ أتمنى أن يكون الوضع على ما يرام . لقد أثرت في نفسي أسئلة عديدة .هل هناك ما يدعوا للقلق ؟

-الأمر الأول هو ما حدث لابننا وائل جعلني أخاف عليه وعلى بقيه أفراد أسرتي من أي مكروه . فرغم أن الأمن قام بدوره على أكمل صورة ،بأن اعتقل افراد العصابة إلا أنه

بقي يساورني ألم وقلق . أما الشيء الثاني فيتعلق بأحوال التجارة عندي فهي ليست على ما يرام كما تظنين وكما يظن جيراني وأصدقائي هناك.

في الحقيقة أنا أمرُّ بهزات مالية تحدث معي لأول مرة، لقد قلت المداخيل و زادت الضرائب و الغرامات و ارتفعت الأسعار في الأسواق وكسدت السلع والبضائع بسب زيادة عدد المتاجر والمحلات وتخصصها .كما أنني دائن لكثير من الناس ظننتهم من أصحاب الوعود الصادقة لكنهم خيبوا ظني فيهم فلم يظهر لهم أثر وبقيت في ذممهم ديونا لم يوفوا بها إلى لحظتنا هذه . ولك أن تتصوري الوضع .هنالك دورة مالية اقتصادية بسيطة. فلكي تشتري سلعا أو موادا من جديد، لابد لك من مال، ومالي عند المدينين وهذا إشكال عويص.

-لماذا لا ترفع ضدهم دعاوى قضائية ؟

-لسببين ،أولا أنا أعرف أن إجراءاتها طويلة وتستنزف أموالا إضافية، دون جدوى فربما أجد نفسي دفعت أكثر مما جنيت. أما الأمر الثاني فهو أنني لست متعودا على متابعة الناس و جرهم إلى المحاكم .أنا الآن بخير على كل حال وسأستمر في ممارسة مهنتي بشكل طبيعي. عندما أنظر إلى حال بعض الناس، احمد الله تعالى على الوضع الذي أنا عليه.

-و لكن أنا قصدت فقط إرجاع حقك . ولست من النساء اللواتي يتضجرن من قدر الله . لطالما كنت أذكرك في وقت سابق بأننا تعلمنا من ديننا السمح الحنيف ومن رسولنا الأكرم

صل الله عليه وسلم ،أن ننظر إلى من هم اقل منا لئلا نزدري نعم الله علينا .المهم انطلق وتوكل على الله فهو حسبك، ولك في الحياة والتجارب عبر و دروس مستفادة.

لقد كانت أم وائل تأمل في أن تصل رسالتها إلى زوجها الذي لم يكن يسمع لها أو يصغي لنصائحها من قبل. بل ولا يكلمها ولا يبلّغها بما يفعل . تريد أن يتغير نحو الأفضل خاصة " وأن أبنائها في عمر حسّاس " .

باشر عبد الرحيم تجارته في حانوته الجديد متوكلا على الله، وفى نفس الوقت معاهدا نفسه بأن يستمر في بناء ما تبقى من البيت كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

الآن وقد بدأت السنة الدراسة و التحق التلاميذ بحجرات الدراسة، كان على الوالد تغيير المدارس التي يدرس فيها أولاده خاصة وائل المصدوم نفسيا. انطلق للبحث عن إعدادية، ولحسن الحظ كانت ليست ببعيدة عنهم، أكمل الإجراءات وأصبح وائل و اخواته يدرسون فيها. كان على وائل الالتحاق بسرعة بمدرسته الجديدة واستدراك كل ما فاته من دروس، وكذا البحث عن نسرين، هل هي تدرس فيها ام في مكان آخر. لقد كان يظن بما لا يدع مجالا للشك أنها في مؤسسة قريبة من منزلها لكنه ترك العنان لبصيص من الأمل يحذوه، في احتمال وجودها هناك.

لم يكن يستلزم وائل وقت كبير في معرفة الحقيقة. لقد تيقن بأن مدرسته الجديدة هي مدرسة للبنين فقط، من أول يوم وطئت قدماه أرضها. خطواته الأولى كانت عصيبة

للغاية لأمرين : لإدراكه بأن نسرين تدرس بمدرسة أخرى، وما زاد الامر تعقيدا نفسيته المعتّلة ابتداء، حيث مرافقة أبيه له من البيت حتى الوصول .

لم تختفي تلك الخيالات الدهماء من بال عبد الرحيم الذي علم الجميع بأنه والد وائل، وعرفت الطريق كذلك. إن أمرا مثل هذا حرّي به أن يجلب التعاسة و الوجع للفتى ،إنه يشكل سحابة ثقيلة كئيبة تملأ المكان من حوله ولا تكاد تنقشع . صار يراقب الأمر ويبدي تعليقات استهجانية ساخرة داخل أعماقه المكلومة.

لم يكن بوسعه إلا أن اشتكى والده لمربيته- مرارا- إن هذا التصرف المنبثق من تفكير والده الخاطئ، لكفيل بعصف ونسف حياته النفسية المنهارة أصلا ،وكذا مشوراه الدراسي برمته- و إزاء هذا الطّلب لم يكن بوسع المربية الأم إلا أن نزلت عنده، فقررت إيصال شكوى الفتى لزوجها ، وترجته بأن لا يعيد الحوار الذي دار بينهما بحال من الأحوال لوائل، قرر عبد الرحيم التخلي نهائيا عن فكرة مرافقة ابنه، خوفا من أي سوء قد يطال -الوضع النفسي والجسدي لولده- برمته.

توالت الحصص الأولى بدون طعم ولا لون ، فالغلام ولأنه دخل متأخرا الفصل. فلقد أجلس في الطاولة الأخيرة من الحجرة الدراسية .وكيف الخلاص وهو ضعيف النظر و لا يرى السّبورة جيدا، وهذه معضلة ستؤثر في تحصليه بشكل سلبي لا مناص. والواقع بقول أنه منهك من تجارب سابقة في نفس المنحى .لم يكن بوسع الفتى قول ذلك لأساتذته خجلا وهو الذي تنامى معه مذ مدة بعيدة. ولم يكن بوسعه كذلك رفع طلبه لوالده لبقاء خوفه من تبعات ذلك قائما. فلم تنبس شفتاه ببنت كلمة لا إلى أبيه ولا بالوساطة عن

طريق أمه، ربما كان عزاءه الوحيد هو كتابة ما يراه ونقل ما لم يراه من كراريس ودفاتر صديقه الذي يجلس معه أو عن طريق إملاء الأساتذة .

في أحد الأيام وعند خروج وائل من الصف ووصوله إلى البيت وجد شخصا عزيزا غاليا على قلبه، يقف عند عتبة المحل برفقة والده يتجاذبان أطراف الحديث، فاندفع نحوه مقبّلا جبينه ومحتضنا إياه . لم يكن هذا الضيف العزيز سوى " حافظ " معلمه في المدرسة القرآنية.

سأل وائل معلمه:

-كيف حالك سيدي ، لقد اشتقت لك كثيرا ؟

رد عليه معلمه:

- انا بخير والحمد لله ...وأنت كيف حالك وكيف حال دراستك ؟

-انا في صحة وعافية. وقد دخلت مدرستي الجديدة منذ مدة بسيطة والأمور جيدة على كل حال.

سأل المعلم وائل :

-هل لازلت تحفظ وتراجع محفوظك من القرآن يا بني ؟ إن كنت تفعل فهذا أمر جميل، وإن لم تكن كذلك فخصص وقتا كل يوم ولو لربع ساعة للاسترجاع. فهذا جدير بأن يرسخ في ذهنك.

طلب " حافظ " من صديقه عبد الرحيم أن يسجّل وائل عنده في مدرسة صغيرة جديدة تعنى بتلقين وتدريس التلاميذ أصول النحو والصرف والبلاغة. وهي ليست ببعيدة عن مقر سكنهم وبرنامجها حصة واحدة في الأسبوع يوم الجمعة. ابتهج الوالد بالفكرة معاهدا صديقه بقبولها.

بعد هذه الزيارة اللطيفة الخفيفة، همّ حافظ بالانصراف . بعد أن طلب الإذن بذلك. لكن عبد الرحيم ألح عليه إلحاحا بالبقاء معه لتناول طعام الغداء . غير أن الضيف العزيز استأذن مرة أخرى لانشغاله بظروف كثيرة واعدا إياه بتكرار الزيارة كلما تهيأت له الفرصة.

أخبر الوالد عائلته عند تناولهم وجبة الإفطار بخبر زيارة صديقه، و ما دار بينهما من حوار، على أن المفاجأة التي أراد سردها عليهم، هي استلامه لمبلغ الفدية المقدرة بمائة ورقة ، والتي استرجعها صديقه من والد المجرم الذي لم يكن بوسعه مقابلته خجلا مما اقترفه في حق ابنهم .

لقد قرر عبد الرحيم تقسيم المبلغ إلى ثلاثة اجزاء: جزء منه هدية إلى صديقه المخلص الأمين ،والثاني رصدها كتكلفة ذهاب إلى البقاع المقدسة، والثالث لإجراء بعض الرتوشات النهائية على المنزل الجديد، ثم مضى قدما في سبيل تحقيق ذلك، حيث ذهب إلى إحدى الوكالات لإتمام إجراءات التسجيل. ثم إلى صديقه لتسليمه الهدية البسيطة وأخيرا انصرف بوجهه نحو بيت صديقه البنّاء لشراء اللوازم ووضع نموذج عمل ثم البداية في الأشغال.

لدى وصوله إلى صديقه " حافظ " بقصد منحه الهدية المالية، رفض الأخيررفضا قاطعا الفكرة. قائلا :

-لو تريد أن نبقى أصدقاء فلا داعي لمثل هذه التكاليف. هناك من هو أولى مني بها، ما رأيك أن نتقاسم الأجر، فقبل عبد الرحيم دون تردد طالبا منه مقتضى الفكرة. فرد الصديق:

-إما أن تشتري بها مستلزمات وأغراض لأي مسجد من مساجد المدينة وتجعله وقفا لوجه الله .وإما أن تقسم المبلغ الى أجزاء، وتمنحها صدقة للفقراء والمساكين.عجبت الفكرة السّديدة عبد الرحيم وعاهد صديقه على العمل بها عاجلا غير آجل .

رجع عبد الرحيم إلى بيته وهو لا يكف عن مدح صديقه بصنعيه الجميل ونصائحه السديدة وزهده في الحياة . ثم إنه لم يكف عن المقارنة بينه وبين جارهم الجديد في مسكنهم السابق. وكيف أنه جار سوء.

تلقف وائل كلام أبيه الذي سمعه بكل تفاصليه، ما جعله يسرع في سؤال والدته عن هذا الجار المقصود من كلام أبيه فعرف من سيّاق كلامهما . أنه والد نسرين ، فبهت وكف عن الكلام من وقع ما عرف. يا للهول لقد كان هذا الأمر آخر ما يخطر على باله ،إنه أمر مقرف مثير للخوف والرعب والكراهية. لقد أثار في نفسه اشمئزازا ونفورا من فتاة

رسمها في خياله كل هذه المدة ،والحقيقة أنه لم يكن لوائل القدرة الكافية على الفصل بين تصرفات الناس.

فهل له أن يحكم بنفس الحكم على شخصين مختلفين مهما بلغت نسبة القرابة بينهما ؟ هذا الذي حصل وسقطت الفتاة و والدها وعائلتها من عينيه ربما إلى الأبد.

لقد صدم وائل بالأمر وأصبح في باله تفكير موجع ، يطلق السؤال تلو الآخر على نفسه قائلا :

-هل هذه الفتاة حقا أبوها هو من خطفني و ضربني ودمّر عائلتي ؟ هل لها ذنب في ذلك ؟ ربما كانت تعلم بالقصة ؟ ربما كانت تكرهني وتعتبرني انسانا سيئا ؟ هل كانت تعلم تفاصيل وحيثيات القضية ؟ لم تكن لديه أجوبة صريحة و صحيحة على الأقل في لحظته تلك.

انصرف وائل إلى دراسته حاملا في قلبه كل تلك الأسئلة، لكن آن الحال كان ملزما بصرف نظره ولو على مضض وتوجيهه شطر التحصيل الدراسي و العلمي.

لقد سجّل بالمدرسة الجديدة لعلوم اللغة لمدرسه السابق " حافظ " حيث إنه كان يحضر الدروس كلها أمسية كل يوم جمعة. لقد كانوا يدرسون الشّعر و النثر والبلاغة وهو أمر كان يشد انتباه الفتي الذي بدأ ينغمس فعليا في هذا النوع من العلوم خاصة الشّعر . في بداياته تلك كان يطلق العنان لتفكيره وهو يحاول ان يكتب شيئا جميلا متوازنا متناغما،

يشكل كيانا ، له لحنه وقافيته. بيد أنه لم يستطع لصعوبة ذلك، فكثير من عيون الشّعر يعجب بها لحنا ولكنه لا يفقه معناها و لا مضمونها ولا حتى قراءتها بشكل جيد وعلى أصولها.

انتهى العام الدراسي الأول بنتائج متوسطة إلى حسنة لوائل ما أهله إلى الارتقاء إلى عامه الثاني .لقد كان أجمل بداية فيه أن معلمه في الابتدائي " سي محمد " ترقى ليصبح أستاذا في الطور الإعدادي لمادة الآداب .أمر مثل هذا جعل وائل يطير فرحا. فسي محمد صديق والده وطريقة تدرسيه ومعاملته رائعة و راقية جدا . فهو من أجلس وائل في مقدمة الصف لضعف رؤيته ذات يوم. وهو من كان يحفزه و يشجعه على تحصيل احسن النتائج بنصائحه و ارشاداته التي لا تنته. هذا الزخم الجديد ،عطفا على دراسة أصول الشعر والأدب والبلاغة والنحو عند " حافظ " ترك أثرا طيبا في تلقين وائل من أنهار هذا العلم النبيل . طفق الفتى من لحظتها في الانطلاق نحو المشاركة في كل حصص مادته المحبوبة، بل إنه صار يجني أفضل العلامات والمعدلات فيها.

لم يكن" سي محمد " من المفضلين لدى وائل، بل إنه الأفضل من بين كل الأساتذة في نظره بل في نظر كل التلاميذ. إنه الأستاذ البسيط السهل البّشوش صاحب الابتسامة العريضة التي تعلو محياه كل لحظة. كانت كل حصة من حصصه تبتدئ بأذكار الصباح والمساء ،والغرض زرع الدّين والفضيلة في صفوف الناشئة . لا يكف البتة في تذكيرهم بالصلاة وبرّ الوالدين والإحسان إلى الناس ومراجعة دروسهم ورسم أهداف لهم في الحياة. يكافحون من أجل الوصول إليها بسبل و طرق مشروعة .

ولأنه كان يعلم علم اليقين بأن مستوى تلاميذه لم يكن في عمومه ممتازا،فلقد حرص أشد الحرص على تقديم دروس دعم وتقوية لهم خلال أمسيتي الاثنين و الخميس، مستغلا فترة الفراغ ،ولأنه كذلك يعلم بأن بعض التلاميذ معسوري الحال وسيماهم على وجوههم من أثر ذلك. فلقد كان هذا الأمر يحز في قلبه المشع بالحنان الفيّاض فيرسم هالات الألم و الحزن فيه، فدفعه بذلك - صعب المظهر -إلى اقتطاع جزء من راتبه الشهري كل مرة لبسط يد العون . ومن جميل ما فعل أنه كان يقدم مساعدته لتلاميذه ، فيختار كل مرة أحدهم- بعد أن يواريه عن الأنظار- ليقدم له مساعدة قيّمة، درء لكل تعليق جارح أو كلام فاضح قد يقال عليه من طويلي الألسنة وحدادها.

جاءت مناسبة تكريم الطلبة النجباء في كل المستويات الدراسية نهاية الموسم الدراسي، فتقاطر التلاميذ و الأساتذة من كل مكان، للحفل الذي تنظمه الوّصاية المعنية كل عام . فبعد إلقاء كلمة الترحيب والشكر، انطلقت الفعاليات بمسابقة فنية وأدبية و علمية، للمتفوقين النجباء في كل مادة .

انطلقت فعاليات المسابقة، و حان وقت سؤال اللغة و الأدب العربي الخاص بإعدادية وائل. طرح السؤال من اللّجنة وتقدّم للإجابة الفتى حيث أصاب وأبدع ،وعينه مصوبة نحو إنسان ، لم يتوقع حضوره و تواجده بعين المكان.

لم تكن النتيجة حاسمة بالنسبة لوائل الذي احتلت مدرسته المركز الثاني، بعد اخفاقها في السؤال العلمي ، ذلك أنه انتقم لنفسه بحضور شخص ظل في مخايله، سببا في وجعه ذات يوم .

انتهت الحفلة وأخذ الجميع جوائزهم بمن فيهم وائل، فانصرف الكل عاقدين العزم على تنظيم حفل سنوي آخر في نفس الزمان والمكان. وصل وائل إلى حيث الرواق المفضي إلى خارج القاعة، فسمع صوتا خافتا وكأنه يهمّس يناديه، فلم يعر له أي اهتمام،استمر في سيره ، لكن الصوت الهامس ظل يلاحقه لمسافة.

التفت على وجل ،فإذ به يبصر نسرين. رجع بجسمه نحو الأمام مندفعا في غضب، لكن الفتاة ركضت بسرعة نحوه محاولة إيقافه والتكلم معه . لقد علمت أنه فهم علاقتها بالرجل الذي اختطفه و ألحق الأذى به وبعائلته. ظلت تلاحقه و تترجاه بأن يتوقف.

لقد كان صراعا داخليا رهيبا يعيشه ،كان يريد الكلام معها لأنها الفتاة التي لطالما كان معجبا بها، فلا يريد بالتالي خسارة ودّها .لكن صوت الضمير والعقل و النصيحة التي علّمه إيّاها معلمه " سي محمد " و " حافظ " بأن يأخذ الحذر كل الحذر من إنسان لا يريد له الخير ،أو يخرج منه الشر هو أو أحد مقربيه ،و في إنسان ارتكب ضده جريمة تجعله ينزع نحو الانصراف.

لقد كان وائل خائفا منها لبشاعة الفعل الذي ارتكبه والدها و الحقيقة أنه لم يكن يكرهها، فهو في مخيلته مجرمة هي كذلك قد تلحق الأذى به. ولكنه معجب بها آن الوقت ،إنه بذلك التوصيف لم يصل إلى سن نضج المشاعر بعد ولم يصل إلى مرحلة سرعة اتخاذ القرارات الصائبة . والدليل أنه توقف للتكلم معها، بيد أنه لم يتكلم بجمّل مفيدة، و لا بجمل غير مفيدة. توقف وائل وقوفا شاعريا آخر المطاف ، فسّرقت قوة اللّحظة منه كل كلمة بل كل حرف ، ما جعلها تنبري لتسأله :

-لماذا لم تتوقف كل هذا الوقت ، لقد تعبت وأنا أناديك. كنت أريد ان أقول لك مبارك عليك الجائزة والإجابة الجيّدة.

لم ينبس الفتى ببنت شفة، لقد احمر وجهه و ارتعشت فرائصه و تبلدت حركاته وضرب زلزال مدمر في قلبه. أما عينيه فلم ترتفعا عن الأرض قيد أنملة .أمام صمته المطبق انصرفت الفتاة في لمح البصر ، وبقي هو مستمرا في مكانه متسمرا ، يهجو نفسه بعديد العبارات ،و يعذبها بكم هائل من قسو الكلام. انصرف وهو يخاطب نفسه:

- لماذا لم أقل لها أنني معجب بك ؟ لماذا لم أقل لها أن والدك سفاح مجرم ؟ لكن هل هي فعلا كذلك تستحق كل هذا الكلام ؟ لماذا استجبت لندائها و توقفت؟ كان حري بي عدم الاهتمام بها وبكلامها .هل ستعود و نلتقي يوما ما ؟

هذا التضارب الصارخ في مشاعر الفتى، جعله يدخل في دوامة أخرى، فلا هو معجب مصرح بإعجابه و لا هو نافر كاره مبيح بذلك . إنه في لحظة جنون، يريد أن يرجع تلك اللحظات-التي أضحت في رّفة عين في رفوف الذكريات - ليفعل شيئا أو ليقول شيئا لكن هيهات هيهات..

رجع الفتى إلى المنزل، وظل ردحا من الزمن تبدو عليه علامات القلق و التوتر. فلمّا لاحظ والده ذلك، استفسره عن كينونة الشيء الذي يعانيه ؟ لم يجب الغلام ولم ينطق .رغم تكرار السؤال. ظل وائل على حاله مدة من الزمن ، ما جعل عبد الرحيم يفكر في كيفيه تخليصه من أزمته النفسية التي عصفت به.

خطرت ببال الوالد فكرة ،لم يساوره أدنى شك في قبول وائل لها . لقد اقترح عليه تسجيله في فريق كرة القدم للمدينة فئة أصاغر، فهذه الرّياضة يعشقها الفتى حد النخاع، وهو يتمتع بملكة ربانية في مداعبتها والشارع والأصدقاء خير شواهد على ذلك.

لم يكن صعبا على وائل ان يقبل بعرض والده الرائع، فهو فرصة للمزيد من الخروج للشارع ،وكذلك لممارسة أفضل الرياضات حبا وشغفا على قلبه . لقد كان صعبا على الطّفل ووالده على حد سواء التوفيق ما بين المدرسة وحصص الدعم الخاصة بالأدب العربي و المدرسة الخاصة بفنون الشعر و النحو و البلاغة .لكنهما أرادا مسك العصا من وسطها،مع ما في ذلك من مشقة وعناء . تعرض وائل لكثير من الإصابات في بداية مشواره الرّسمي مع نادي الكرة، لكنه صمّم على البقاء و الصبر.لقد كان حلما يراوده بأن يكون لاعبا فذّا في ميادين الكرة ،في وقت كانت تعج الساحة الكروية العالمية بنجوم كبار يتقدمهم الجوهرة الأرجنتينية دييغو أرما ندو مارادونا أسطورة كرة القدم. و كذا كانيجيا ومولر و أساطير أخرى. عطفا على أبطال الرسوم المتحركة :الكابتن ماجد وبسّام والثنائي شوقي وياسين ورعد ووليد وغيرهم ،إنهم كانوا يمثلون قناديل في سماءه،مصابيح ضياءه، يستلهم منهم أجود فنيات الكرة و أعجبها .فيريد تطبيقها على واقع الملعب، و باقي الأحيان في أحلام يقظته.

شارك الغلام في لقاءات كروية داخل وخارج بلدته و فاز مع ناديه بلقب محلي .و لأن والده لم يكن يريد أن تأخذ الكرة من حياة ابنه الشيء الكثير، ولإيثاره الشّهادة العلمية على الكروية ،ثم لاقتراب استحقاقات هامة في حياة طفله، أولها شهادة الاعدادي فإنه قرر

شطبه من قوائم نادي البلدة .لقد قبل الفتى أمر والده على مضض لتعلقه الشديد بالرّياضة التي يحب لكنه انصاع بالنهاية للأمر الواقع.

نجح وائل في شهادة نهاية التعليم الإعدادي، وكانت هذه النتيجة منعرجا آخرا في حياته العلمية والتي فتحت له أبواب الثانوية على مصرعيها. لقد كان قرار لجنة القبول و التوجيه يؤكد على تفوقه في المواد الأدبية وبالتالي توجيهه نحو تخصص الآداب ،وهو ما تم فعلا بالثانوية غير البعيدة عن مقر سكناه .

لكن الفتى كان له رأي آخر، فلقد كان يريد التوجه نحو تخصص علمي قد يؤهله في حال التميز والتفوق فيه إلى طرق باب تخصصات مميزة، أبرزها الصيدلة وطب الأسنان و الطب و الهندسة المعمارية... فكانت أول خطوة سعى إليها عن طريق أحد معارف العائلة ،بأن غيّر التخصص وكذا الثّانوية.

لكنه لم يكن يدري بأنه قد غيّر نفسه إلى مكان. سيرهقه طوال فترة مكوثه فيه. ولم يكن يعلم أيضا أنه سيلتقي مجدّدا بنسرين فيا ليته ما قرر،و يا ليته ما فعل .

4.ضياع في عرض البحر.

كانت تلك الفترة عصيبة جدا على البلد الذي يعيش فيه وائل. أزمات اقتصادية وسيّاسية هزّت أرجاءه هزّا، فانعكس ذلك على الوضع النفسي والمادي للناس .

لم يكن عبد الرحيم في منأى عن تلك الظروف التي لم تستثنى احدا كان . لقد هوت قيمة العملة وزاد العرض وقلّ الطلب وارتفت معدلات التضخم لتضرب بأطنابها. فلم يعد قنطار دراهم أن يفعل شيئا. ولم يعد للمتجر الفاره الذي كان يملكه عبد الرحيم محل من الإعراب.

وأمام النقص الملحوظ في المداخيل و زيادة الضرائب و النفقات ، ارتأى أن يجد لنفسه عملا آخر يعينه على مجابهة الأزمة وتداعياتها السلبية ، فاهتدى إلى إعادة بعث و تهيئة الحقول التي ورثها عن والده، والتي أهملها منذ سنوات طويلة بسب نزوعه نحو تكريس كل اهتمامه بالتجارة، وعدم إيجاده للوقت الكافي للاستثمار فيها.

عمل في البداية على تمكين ابنه وائل من البقاء لفترات طويلة داخل المحل و المستودع ،خاصة في فترات العطل الشتوية والربيعية و نهاية الأسبوع، وكذا عند خروجه من الثانوية، و من أجل تدريبه على فهم البيع و الشراء والأسعار وكذا طريقة تمويله للمستودع في حال نفاذ المخزون، احتاج الفتى لزمن يسير لم يتجاوز الشهر حتى أصبح

يفهم كل أصول البيع والشراء والمعاملات الذي يقتضي. لكن الوالد أبى إلا أن يخضعه لفترة أطول من الزمن حتى لا يخطئ ،ولكي يطمئن قلبه على الوضع بشكل عام خاصة ،وأن الفتى لا يزال يافعا ينعدم أو على الأقل ،يفتقر لروح المسؤولية والمبادرة والأخذ بزمام الأمور، وكذا لفن التسيير الحسن.

ظل عبد الرحيم يرافق ابنه إلى نهاية الموسم الدراسي، ليصبح بداية العطلة مؤهلا لممارسة بعضا من مهنة أبيه على أصولها الصحيحة. لقد كان الأخير يغيب لفترات طويلة ومتقطعة من الزمن، وكلما رجع وجد ابنه قد أبلى البلاء الحسن.بل العكس تماما مما كان يتوقع. إنه يسير الأمور و كأنه رجل مقتدر صاحب حرفة ومهنة قديم .

اطمئن عبد الرحيم قلبه ، لصنيع ابنه اليافع- الناضج- بعد أن توجس خيفة في نفسه- بادئ الرأي- من عدم نجاحه بالامتحان ، الآن أصبحت الأمور على ما يرام.

ها هو الأب يضع نفسه متفرغا بكد وجد ليعمل في حقول والده الخصبة والتي لا تبعد عن المدينة بمسافة فارعة . وجد عبد الرحيم الحقل في حالة يرثى لها بعد أن تم إهماله ردحا غير يسير من الزمن .فالأرض كالإنسان تحب من يعاملها معاملة حسنة وتجيد بإنتاجها الوفير بالاهتمام اللامنقطع بها .

تجاسر أب وائل على نفسه فقام بكراء شاحنة لنقل الأتربة والأوساخ وقطع وأغصان الأشجار المتقطعة، إلى مكان آخر. ثم قام بتقليب التربة لتهويتها وإصلاح عين الماء وتقليم الشجيرات المثمرة في وقت قياسي بمساعدة بعض شباب الضيعة الطيبين. كان الوقت حينذاك وقت ينع ثمار بعض أنواع الأشجار كالمشمش والبرقوق و اللوز وغيرها.

فجنى محاصيلها، ثم قام بغرس أشجار أخرى مثمرة مكان التالفة . لقد كان يشعر حينها سي عبد الرحيم بحيوية بالغة وكأنه في عزّ وعنفوان شبابه .إنها أرض الأجداد المعطاءة. لقد كان يحض نفسه دائما بأن يتعهدها. لكن الظروف المعيشية في المدينة أجلت مشروعه إلى هذا الوقت.

تحولت الأرض التي بها حقول سي عبد الرحيم إلى مروج خضراء في لمح البصر .،بجانبها بعض الجيران ذهبت أجسادهم وبقيت مساكنهم فقط. فلم يبق منهم سوى الحاج الهادي الذي كان يتنقل بين جنبات حقول عبد الرحيم للفسحة و استنشاق الهواء النقي، وجني بعض الثّمار بعد أن أخذ رخصة بذلك من مالكها.

سي الهادي يعتبر نفسه أقدم سكان المنطقة ،وهو شاهد عصر عليها، كذلك هو يفتخر أيّما فخر بكونه الحارس المصون لتلك الحقول الجميلة من أي اعتداء . لقد كان يعيش برفقة أولاده الذين تزوجوا كلهم و انتقلوا إلى العيش في حاضرة المدينة ولكل منهم مهنته و حرفته ومسكنه الخاص .إنه يقص حكايته المؤثرة لسي عبد الرحيم .وكيف أنه يعاني من العزلة و الوحدة بعد أن هجره الجميع ليبقى في هذا المكان، دون أنيس و لا جليس يخوض معترك الحياة لوحده، وحده كلبه الوفي الذي يعتبره أكثر وفاء من بعض البشر، حيث يغمر حياته بكثير من العطف و الاهتمام .

لقد كان سي عبد الرحيم يستمع إلى الشيخ باهتمام واحترام كبيرين. وما إن أنهى محضر كلامه حتى تنهد الرجل ونظر إلى الحاج الهادي قائلا:

-إن ما ترويه عجب، وإن الذي سأرويه عليك لهو العجب العجاب.صدقني إن العيش في المدينة مع الناس وضغوط الحياة وتدهور سلم المبادئ والقيّم في المجتمع، وابتعاد الناس عن تطبيق تعاليم دينهم رغم معرفتهم لها، وما انجر عن ذلك من تدهور في السلوكيات والمعاملات من سرقة وزنا وربا وقطيعة رحم وبهتان وزور ..وغيرها كثير ،لكفيل بجعلك تحمد الله وتثني عليه من الخير الذي أنت عليه. أنا لا أطعن في كلامك بل أعلم علم اليقين أنه أمر واقع. ولكن الذي دفعني لأسرد عليك تلك الأرمادة المشينة من تصرفات ساكنة المدينة -إلا من رحم ربِ -أنني عانيت منهم شخصيا ومن أقرب الناس لي. سنكون بخير لو تمنينا الخير للناس كما تمنيناه لأنفسنا ،ونكون أفضل من حالنا لو أصلحنا علاقتنا بالله تعالى .

تلفت الحاج الهادي قائلا:

- صدقت يا بني .

لم يشعر عبد الرحيم بالوقت هناك ،حيث انقضت العطلة الصيفية وهو ما يعني ضرورة رجوعه إلى البيت. للانصراف نحو عمله الأصيل، وترك الفرصة لوائل للالتحاق بدراسته وهو الآن قاب قوسين أو ادنى من امتحان البكالوريا التي سيجريها نهاية العام المقبل .

كانت فترة التحويلات بين الشعب الدراسية جارية . وكان تفكير وائل منصبا حول إمكانية رجوعه نحو شعبة الآداب. بيد أنه كان يريد البقاء في تخصص العلوم لتحقيق هدفه المنشود.

لم يكن والده ليتدخل في الأمر، أولا لعدم إلمامه بالموضوع. ثم لترك هامش من الحرية لولده الذي أصبح شابا يافعا يدرك ما يفعل.

لكن أمام الصراع الداخلي الكبير الذي دخل فيه وائل لم يكن بوسعه سوى الاستسلام لخيار البقاء في تخصصه .وبالتالي اجتياز البكالوريا في التخصص العلمي. أُعلنت السنة الدراسية بدايتها وتم تسجيل الطلبة و التحاقهم بمقاعدهم الدراسية.

دخل وائل قسمه الجديد فوجده يعج بالإناث باستثناء ثلاثة ذكور يتخذون من المقاعد الخلفية مستقرا لهم . فالبنات لا يسمحن أبدا لجنس ذكر من الجلوس في المقاعد الأولى للفصل . حتى وإن وجد وائل مكانا له ضمن كوكبة المقدمة فإنه بكل تأكيد لن يفعل وإلا فإنه سيكون محاطا بموجات البنات من كل جانب .

في الحصة الأولى من مادة الأدب. طلب الأستاذ من طلبته ذكر اسمائهم والقابهم و تواريخ ميلادهم ومعدلاتهم الموسم المنصرم. ولما وصل دور وائل تلعثم في الكلام لدرجة نسي فيها اسمه. ما جعل الجميع يدخل في هستيريا من الضحك. احمرت وجنتي الفتى من الخجل فجلس .

لقد كانت أكثر الطلبة ضحكا فتاة تدعى " ليديا " منفوشة الشعر ،جميلة الهندام، آسرة الجمال. تبدو عليها علامات البذخ و الرفاه .لم يكن الأستاذ ليوجه لها ملاحظة عن هذا الكم الهائل من الجنون والعبث. ربما لكونها نجمة في السّماء، أو أنه تمثّلها إحدى غانيات المسلسلات المدبلجة التي كانت تحلق في أفكار وأذهان بعض المعتوهين المسروقة عقولهم وأحاسيسهم مثله .

ترنح وائل في وجل على عجل، خال نفسه واقفا ليجلس لكنه وقف، بعد أن تلعثم جالسا، لم تكن ضحكة الفتاة تعبيرا عن مشاعر الاستهتار والاستفزاز بما فعل ، لكنها طريقة الاجابة والتواصل هي التي جعلتها تغرد تعبيرا عن ذلك فهي لا تحتاج على ما يبدو إلى وسيط تويتر للتغريد ولا إلى فايس بوك للتعليق.

غضب الفتى من قهقهاتها حيث سمعت بها كل الامم غير المتحدة وكل الشعوب غير المحبة للسلام . بيد أنه تظاهر في لحظة فارقة بلامبالاة ، والتي يبدو أنه قد استلّها من قصص شارلي شابلين الشهيرة . فأكمل حصته على مضض، انتهت الحصة فاندفعت " ليديا " نحو وائل لتناديه باسمه التفت اليها و في محياه علامات الدهشة والحيرة سائلا نفسه:

-كيف عرفت اسمي، وانا الذي تلعثمت في كلامي فلم أنطق بكلمة واحدة مفهومة مفيدة .لم يكن لينطق حتى قابلته بابتسامة عريضة، مبدية له اعتذارها و أسفها عما بدر منها من تصرف أرعن. احمر وجه الفتى مجددا واندثر منه الكلام فلا تكلم و لا رد السلام ،ولا انصرف ولا هو التزم المقام. ابتسمت مرة أخرى وهي تلح في طلب الصفح والعفو ، طأطأ رأسه وانزله للتدليل على قبوله الاعتذار .

ثم همس همسا خفيفا بأن لا مشكل مطلقا. كان عليه أن يختار تبعا للحادث هذا إما أن يغير القسم أو أن يبقى، وبالتالي أن يتأقلم مع هذا الجو المشحون والذي لم يعهده قط، لقد درس سنوات الإعدادية في أقسام كلها بنين. فالأنثى لا يعرفها في حياته إلا من خلال أخواته البنات ليس إلا. وكيف له أن يقارن بين الوضعين .

أدرك وائل مع مرور الحصص أن شخصية أستاذ الادب تتكرر بوجود من ينافسه في الدناءة والابتذال . فها هو مدرّس العلوم الطبيعية يوجه له سؤالا تعجيزيا بعدما طرح لغيره اسئلة يضحك لسخافتها وبساطتها تلاميذ الابتدائي؟

لم يفهم السؤال وائل، فطلب من الأستاذ اعادة السؤال بصيغة أخرى، ما أدى بالأخير للاستشاطة غضبا. فرد بمزاجية وعصبية. وفي لحظة فارقة حابسة لنفسه، بل للأنفاس والألباب كلها تلك التي توائمه. تدخلت ليديا مقاطعة أستاذها:

- لقد قال لك لم افهم صيغة السؤال لقد كان صعبا أو غير مفهوم ؟ لم يأبه المدرس لكليهما .أو أنه فهمها وخجل من تصرفه الأرعن. لقد طلب من وائل الجلوس و مراجعة دروسه ؟ لاقيا بذلك اللّوم عليه .اندهش الفتى من ردة فعل الفتاة التي أهانت الأستاذ بطريقة مجنونة. وانتصرت للحق في لقطة عدّلت ميزان الفعل والقول .

متاعب وائل مع الأساتذة المندفعون وراء أهوائهم لم تنته.فها هو أستاذ الفلسفة يعاتبه على وجود انقطاعات وفراغات في كتابة الدروس عند مراقبته لدفاتر الطلبة. لم يجد الشاب من مسوغ إلا قول الحقيقة بأنه قصير النظر وبأنه يشعر وكأن السبورة في محافظة الإسكندرية وهو في مدينة بيروت . لم يسمع الطلبة حركة الفعل و ردة الفعل على تمامها، إلا من خلال الأستاذ الذي رجع من طاولة وائل صوب المصطبة ليعلن بصوت يصلح فقط للنهيق به في الأسواق، على أن زميلهم ضعيف البصر ،وهو لا يدرك في حقيقة الأمر أنه هو من يجب أن يوصف بضعيف البصيرة. لم تستسغ ليديا هذا الأمر فانطلقت في طرح اقتراح تبديل مكانها في الطاولة الأولى والتنازل عنه لصالح زميلها،

موقف مثل هذا دفع بوائل -على حياء-لتقديم كل حروف الشّكر والامتنان لزميلته على حسن صنيعها هذا، لكنه يعلم في قرارة نفسه أنه لا يقدر -آخر المطاف - أن يبرح مكانه للجلوس وسط الجنس الناعم .

لم تكن صنائع ومواقف ليديا الرّاقية تلك محصورة مع وائل فحسب ،بل تعدّت لتغدق بها على جميع زملائها ،لقد كانت تكره وتمقت تزلف وانبطاح وتذلل بعض الأساتذة لها، فقط لأنها من عائلة راقية أرستقراطية غنية المال والجاه ،غيداء الشكل، بل إنها وصلت لإهانة بعضهم على المباشر، تمسح بأنوفهم الأرض وتعفّر وجوههم في التراب تعفيرا وتسومهم سوء العذاب لو تشاء ، لكنهم يتحملون منها ذلك، كأن لا مشاعر ولا كرامة لديهم.

لقد أضافت إلى سيرتهم العفنة غطاء آخر،غطاء الذّل والهوان والعار. كان على وائل في ظل هكذا أحداث ، أن يثبت لنفسه ولأسرته بل لهؤلاء الساقطون الأفاكون، أنه قادر على فعل المستحيل الذي أرادوه له منهجا وطريقا. إنه يجد في تحدي هذه الفتاة لتصرفاتهم- بل وإلى إهانتهم ومسح كرامتهم بالأرض وبالطول وبالعرض مسحا- متنفسا وقناعة بأن لا قيمة لهؤلاء.

لم يكن لينطلق لسان وائل بعد عجز وشلل، مع كل من كان في صفه. فقط كانت ليديا الوحيدة من بين البنات التي بدأ يتأقلم مع تصرفاتها واهتمامها به كزميل عزيز. بل إنه صار يتكلم معها ولو بكلمة عندما يريد أن يخبرها بشيء أو أن يستفسرها عن آخر. لقد وجد فيها الأخت والزميلة و الصديقة التي يفشي لها مكنونات همومه وحاجاته.

انقضت تلك السنة، باصمة على ملحوظتين رسختا في ذهن وائل :

* طالبة مترفة المال والجاه والمواقف. و بشهامة بلغت عنان السّماء .

* شلّة من الأساتذة يحملون الوصف والاسم دون اللّب والجوهر ، يفتقدون للمستوى العلمي والعملي على حد سواء، فهم والصّفر سواء.

تنفس وائل الصعداء لقد ارتقى إلى السنة النهائية ،إنه عام الشهادة التي يحلم بها. سيمتحن في البكالوريا بإذن الله. كان الأمر مثيرا للفرحة لعبد الرحيم الذي بدأ يرى ولده في الأفاق مشروعا ناجحا. وقد بدأ يمسك بالحياة العلمية والعملية حيث المحل والتجارة، وهو يعلمه أولى الأبجديات، بأن التجارة ربح وخسارة، والأجمل أن يصل المرء إلى رتبة التجارة ربح محض لا خسارة، في لحظات شاذّة وغريبة بالنسبة لوائل الذي يرى كمّا بليغا من التناقض بين أفعال والده وأقواله ،خاصة لما يرجع بتفكيره إلى الزمن الماضي الوجيع.

لم يكن يدرك عبد الرحيم أنه وعند زيارته لحقله، سيلقى مفاجأة مدوية ، لقد هبّت عاصفة شرسة أسقطت الثمار وكسّرت أغصان الأشجار وألقت بها في كل مكان. والنتيجة ربع المنتوج أو أكثر اندثر وذهب أدراج الرياح.

لم تكن عاصفة جوية، بل كانت عاصفة بشرية. لقد تأكد لما وجد خرقة قماش معلقة مكتوب عليها:

-(عبد الرحيم لن أرحمك..)سأسُومك سوء العذاب ؟

مسك بيدّه المرتجفة الخرقة ولم يفهم شيئا مما يحصل معه .توجه بعد لحظات من الصمت والذهول يبحث عن " عبد الهادي " لكنه لم يجد له أثرا يذكر . بدأ يتسّلل الشيطان إلى أعماقه نازغا في قلبه أمور سوء وشر . فقد يكون لهذا الشّخص ضلع فيما جرى له آنفا، صمت ثم استرجع واستغفر. بدأ يغالب نفسه ، فالهادي ليس من النوع الذي يفعل هذه الأفاعيل الرجيمة. ولأنه لم يجد أحد قبالته ولا خلفه . فلقد بدأ يعيش تداعيا في الأفكار، واغترابا في التصور والإبصار.لم يجد ماذا يقول.. بل ماذا يفعل... لمّ شتاته وضياعه ثم انصرف يحدج بعينين تشتعلان غيظا ودمعا .

لما رجع عبد الرحيم، محطم الكيان والعبرات تنهمر من عيونه انهمار الشلال في قاع الوديان، يريد أن يكفكفها فلا يقدر. عاد و قص الحادثة على ولده وائل الذي هدأ من روعه ناصحا إياه بعدم فعل شيء حتى تتضح الصّورة وتظهر الآفاق المحجبة . أخذ عبد الرحيم بنصيحة فتاه، وماهي إلا فترة أسبوع، حتى عاد إلى حقله لينظر ماذا يفعل . ربما يكون ذلك الأمر دافعا له نحو إيجاد دليل أو اعتراف أو شاهد... وما إن وصل المّكان حتى وجد سي الهادي مع كلبه كالعادة يجوبان أرجاء الحقل الحزين ، لقد فهّم الشيخ من مشية صاحب الحّقل بأنه قد علم ما جرى له ،فاتجه لتهدئته قائلا :

-هدئ من روعك سي عبد الرحيم، ولا تترك الشيطان النازغ يجد له عندك منفذا.

-لم أفهم ماذا حصل ؟

- أحس بما تحس به لكن عليك التروي لمعرفة كل التفاصيل المبهمة. إرم حملك على الله.

-لكن ثمة أمر لم أفهمه، وآخر أنهك تفكيري ؟

-ما هما ؟

-* الأول : أنت...أين كنت هذه الفترة ؟

*الثاني : لقد وجدت خرقة قماش مكتوب عليها " عبد الرحيم " لن أرحمك ؟ ترى من بعث بهذه الرّسالة؟ وماذا يقصد صاحبها؟ وهل عليه الاّ يرحمني بعد كل الذي فعل ؟

أجاب عبد الهادي ، بعد أن أصغى جيدا لصاحبه:

-أولا ، كنت عند ابني في المدينة خلال الفترة السابقة ،لقد خرج لتوه من غياهب السجن ،فكان من الواجب أن أكرمه بزيارة، ثم قصدت منازل بقية أولادي، فرغم أنهم لا يتذكرونني بزيارة، لكنني حملت شتاتي وهممت بالذهاب إليهم علّهم يعتبرون .

ثانيا ،لا أعلم بالضبط من خطّ هذه العبارة المقيتة . ولكن عليك أن تتذكر، هل لك أعداء في هذا الحقل أو حتى في مكان آخر ؟ ربما لك شركاء لم تمنحهم حقهم فيه. أو ربما هناك من يتقاسم معك الحدود، أو ربما هناك أمر لا يمكن استيعابه هكذا .

لا أدري كيف لي أن أساعدك في محنتك ولكنني موجود دائما إلى جانبك في السراء والضراء، لفعل أي شيء يرضيك وتقر به عينك ،ولو تقربنا به بشبر إلى لبّ الحقيقة .

- لا ، قطعا ، لا شيء من ذلك.

تنهد عبد الرحيم شاكرا لصديقه الشيخ حلو كلامه. ظلّ الرجلان مع بعض، حتى عسعس الليل، ولاح بجناحيه في كل الأماكن .

تناولا وجبة العشاء ليناما باكرا بعد تأديتهما لصلاة العشاء . غار النوم من عيونهم ،لم يكن لهما لينما نومة هنيّة هادئة، لقد ظلّ " سيكو " -كلب سي الهادي -في حالة استنفار قصوى. ينبح و يروح ويجئ وكأنه يريد أن يخبرهم بشيء ما، أو أنه يود أن يأخذهم إلى حيث أمر جلل يحدث.

أمام هذا الحَراك المستمر ل " سيكو " نهض الرجلان من مكانهما ، وترجلا سيرا في كل مكان من جنبات الحقل، لكنهما لم يعثرا على شيء يذكر. ربما في لحظة فارقة لم ينظرا جيّدا للمكان أو ربما كان الشّخص يترصد الأمر عن كثب ؟ مرّ اللّيل بعد أن غشى المكان والنفوس. فلمّا تنفس الصّبح استأذن عبد الرحيم صديقه للأوبة إلى منزله و أولاده ، ضاربا موعدا معه في فرصة أقرب قد تكون صبيحة غدهم ، للعودة مجددا و إصلاح ما تمّ إفساده.

عاد عبد الرحيم صباح اليوم الموالي إلى حقله. ظلّ ينادي صديقه الهادي بعد أن بحث عنه في كل مكان. خاطبته نفسه بأن هذا الشيخ -غريب الأطوار- قد رجع مرة أخرى إلى المدينة ربما للقاء أحد معارفه هناك، أو أنه ابتعد عن الحقل لقضاء بعض الحاجيات ليعود لاحقا. كسر عبد الرحيم لغة الخشب هاته ، فمشى وقرر عدم الرجوع هكذا مادام قد وصل، وقد عقد العزم من أمسه على القيام بإصلاح الحقل بالتدريج وبث الروح فيه من جديد .

وبينما هو يسير، وعلى حين غرّة وصل إلى البئر المهجور الذي تراكمت فيه الأتربة والحصى وشيء من أوراق وأغصان الأشجار. ألقى ببصره أسفل البئر فإذا به يجد

صاحبه الهادي برفقة امرأة والقيود على أيديهم والأصفاد على أرجلهم .عليهما آثار ضرب عنيف ومغشى عليهما بالكّامل. ظن لتوّه أنهما قد فارقا الحياة. لكن تأكد بعد ذلك أنهما حيّان يرزقان.

أسرع عبد الرحيم إلى سيارته واتجه بها إلى حيث مكان البئر. تجاسر وقام بحملهما وإدخالهما السّيارة والانطلاق بهما إلى أقرب مستشفى . ومن حسن حظه أنه وجد طاقما طبيّا يفيض إنسانية في تلك المناوبة.

تم إدخال الضحيتين إلى مصلحة الإنعاش، حيث اتضح أنهما تلقيا ضربات بآلة حادة على مستوى أنحاء متفرقة من جسديهما. خرجت الطبيبة بعد طول عنّاء واصطبار. لتطمئن عبد الرحيم أن حالتهما مستقرة نسبيا، وبأن الأمل لايزال قائما في شفائهما. بيد أن الشيخ قد أصيب بارتجاج في المخ ربما يؤثر على ذاكراته في المستقبل .

شكر عبد الرحيم للطبيبة وطاقمها صنيعهم الجميل، ثم اتجه إلى مخفر الشرط للإدلاء بحيثيات وملابسات الجريمة من بدايتها ،وفى باله علامات حيرة و دهشة وأسئلة ونقاط استفهام وظل غائرة .

قوى الأمن لم تستكن في مطاردة المجرم وتقفي أثره ، ظلت وقتا تراقب أماكن عدّة أبرزها حقل سي عبد الرحيم، لكن دون جدوى . لم يعد الحل بعد هذه الدّورية الاستطلاعية الكبيرة سوى بيد أحد الضحيتين على الأقل من حيث المبدأ، أو بإقرار المتهم . لكن رغم ذلك بقيت تلك القوى صامدة على أمل انبثاق اهاليل سارة.

ولأن الشر لا يدوم مهما طال الزمن.ففي إحدى الليالي المقمرة ،وفى حين غرة من مراقبة ومحاصرة المكان اذ بأحدهم يدخل الحقل متجها صوب البئر المهجور رافعا بيده فأسا وآلة لرفع التراب من على البئر إلى خارجه. وعلى مرأى من عناصر الأمن. إذ بالمفاجأة تولد .

سحب أحد أفراد العصابة صندوقا موارى تحت الثرى. ثم قام بإرجاع التراب بشكل عشوائي . وهمّ بالانصراف وما إن تحرك بخطاه قليلا حتى داهمته قوات الشرطة. ليتم إلقاء القبض عليه واقتياده مباشرة إلى المخفر أين تم استنطاقه .غير أنه لم يعترف بشيء يذكر. ناكرا حينها كل التّهم المنسّوبة إليه. وأمام هذا الوضع غلّت يداه ، ونقل إلى المستشفى لاستكمال إجراءات التحقيق معه وسؤاله عما كان يعرف الضحيتين أم لا ؟.

في بداية الاستنطاق. أنكر المتهم كل صلّة له بالعملية وكل معرفة بالضحيتين. غير أنه وأمام صرامة التحقيق -الذي جاء بناء على ما وجد في ملف المتهم وليس عن عدم-، صدم الأخير الجميع بجوابه .

لقد أقر بسلسلة أعمال اجرامية قام بها، دخل على إثرها السجن مرات سابقة ، فهو عضو نشيط في عصابة لسرقة الاطفال والإتجار بهم. ثم إنه كان يحصل هو وأفراد مجموعته المال من ذويهم ، ليقوموا بعدها باقتسام الغنائم .وأنه كذلك كان يخبئ جزء منها وأحيانا كلها، في البئر المهجور الذي تم إلقاء القبض عليه بجواره.

سكت....لكن الضابط سأله عما إذا كانت له علاقة بما حصل للضحيتين وهل يعرفهما ؟

رد المتهم بالنفي المطلق وأردف يقول بأنه قال كل ما عنده. أقفل الضابط المحضر وتم إيداع المتهم الزنزانة تمهيدا لمحاكمته .

بالاتساق مع ذلك بدأت ملامح التحسن الواضح تبدو على المرأة الضحية التي وحين وصول فصيلة التحقيق من قسم الشرطة لأخذ أقوالها. أدلت بما لم يكن في الحسبان...لقد كان المتهم زوجها والهادي والده ؟

لم تمر مدة أسبوع على هذا الإدلاء الغريب، حتى استفاق الهادي من غيبوبته، وقد أضحي يميّز جميع الأشياء والأشخاص. ووفقا لتقرير الخبرة الجسدية والعقلية المرفوع، تم الاستماع إلى أقواله منفردا، فكانت عين أقوال زوجة الفاعل.بما يعني تطابق تام في الإدلاءان.

في يوم المحاكمة المنتظر، وقف المتهم لمناظرة خصومه.

توجه القاضي للمتهم بسؤال :

-لقد أنكرت التهم المنسوبة إليك .

-لم أنكر سيدي ولكنني قلت كل الذي أعرفه.

-اصمت... أنت تكذب....لماذا لم تعترف بضربك لزوجتك و والدك بعنف، وبآلة حادة ، وتركهما في تلك الحالة دونما رحمة ولا شفقة ،ما انجر عنه إدخالهما قسم العناية المركزة .

توجه القاضي إلى زوجة المتهم طالبا منها الإدلاء بما لديها من أقوال وشهادة.

توجهت بوجهها تلقاء مكان جلوس القاضي، وقالت :

-سيدي القاضي المحترم.هذا المتهم زوجي، وهو مجرم مختص باختطاف الأطفال والإتجار بهم، وله علاقة بعصابة لها باع طويل في الميدان الملوث . ولقد أسديت له النّصح غير ذي مرة، لكنه أبى واستكبر وظل في غيّه وطغيانه من العمهين.

القاضي للمتهم :

-أذكِّرك بأنك " رد سجون "وأن لك قضية ليست بالبعيدة. أنت تعي ذلك جيدا .

استرسلت الزوجة بعد طلب القاضي في التفاصيل، حيث قالت أنها علمت أنه وفى العملية الأخيرة باستلام زوجها مبلغ مائة ورقة من تاجر معروف اسمه عبد الرحيم فاعوري، فما كان عليها سوى إعادة المبلغ الذي أبقاه زوجها المتهم في البيت مع حزم مالية أخرى إلى والده الهادي الذي اتصل ب " حافظ " لتسلميه المبلغ إلى سي عبد الرحيم ، وقد قامت بتصرفها هذا بعد أن أحست بتأنيب ضمير وحالة نفسية عميقة من الاستغراق في الموضوع وتبعاته . فلمّا علم زوجها بالأمر انقض عليها وأخذها إلى حيث يوجد والده وحدث الذي حدث .

اعترف المتهم بعد ذلك ،ولم ينكر أيّا من التفاصيل التي ذكرتها زوجته .لتنتهي فصول القضية الدراماتيكية. على إثر هذه الوقائع والأحداث المتسارعة والوجيعة ،لم يجد عبد الرحيم داعيا للبقاء في وكر الأفاعي المجرمين .وإن نالوا عقابهم الذي يستحقون .

فاضطر تحت طائلة الإكراه إلى بيع الحقل وطي حقبة زمنية حبلى بالفظاعة و الوجع و الترويع.

كان على وائل التمعن جيّدا ،والاستبصار مليّا في الخطب الجلل الذي مر به والده.

إنه لم يتعود أن يراه مهيض الجناح مكسور الخاطر بكل هذه الكمية الموجعة، تبعثره ريّاح اليأس والمرارة فتحلق به بعيدا في أفاق السماء ثم تتركه يهوي أرضا في مكان سحيق.

لقد عقد العزم على فعل أمر ما. حال انتهاءه من عامه الدراسي المرهِق الذي أينع بارتقاء وائل إلى القسم النهائي برغم كل شيء.

ذات ليلة أخطر وائل مربيته نيته السفر إلى الصحراء للدراسة هناك، في إحدى الزوايا التي تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم أصول الفقه والشريعة.مانعت مربيته الأمر في البداية، لكنها قبلت بعرض الفتى بشرط قبول والده. تحيّنت موعد العّشاء لأخذ مشورة زوجها في الموضوع وانبرت تكلمه، وهي تدرك أن قبوله العرض تكتنفه معوقات عدّة بسبب حزم زوجها و صعوبة إقناعه .

سمع عبد الرحيم كل التفاصيل ولم يقاطع كلام زوجته ،فلما أتمت أخذ يسرف النظر في الأرض، أخذ نفسا عميقا ملء رئتيه، بعد أن عبس وجهه الذي ظهر عليه جليّا علامات الاستغراب من تصرف ولده، الذي يحب أن يرتاح من عنّاء وشقاء الدراسة خلال عطلته التي يرقبها بشغف زائد.

استدعى عبد الرحيم وائل، وطلب منه معرفة سبب التفكير في هذا الأمر ؟ فرد عليه بالقول أنه بدأ نسيان محفوظه من القرآن، كما أنه يريد الاستزادة في العلم الشّرعي. وهذه هي الأسباب الكامنة في نزوعه نحو هذا الأمر.

تردد عبد الرحيم بادئ الرأي في منح قرار القبول لولده الذي يبدو أنه مصّر وعاقد العزم على خوض التجربة. لكنه نهاية المقال استسلم لتلك الرغبة الجامحة لفلذة كبده. قصد غرفته ثم عاد وفي يده بعض المال الذي سلمه لولده ومعه صك القبول .

كان على عبد الرحيم أن يغتنم الفرصة لإسداء النصح لفتاه بالحفاظ على صلاته في وقتها وفعل الخير ومساعدة النّاس ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وتجنب رفاق السوء .

انطلق وائل صباحا بعد أن صلّ صلاة الصّبح في مصلى المحطة البرّية، ليصل حسب الموعد المرسوم إلى إحدى المحطات العاملة في مجال الإلكترونيات. نزل سريعا . قصد عامل الاستقبال والتوجيه لإعطائه إذنا بالدّخول إلى السيد ياسين مدير المحطة.

طرق الباب بحياء و خوف ليسمع صوتا بالداخل يأذن له بالدّخول . إنها السكرتيرة الخاصة التي طلبت منه الانتظار لحين خروج ضيوف المدير الذين كانوا بالداخل.

انتظر وائل برهة من الزمن حتى آن موعد دخوله، ألقى التحية على المدير، الذي طلب منه الجلوس، ثم تناول الكلمة وأردف يقول:

- من أنت بني، وماذا تريد ؟

رد وائل :

-أنا وائل فاعوري ،جئتك بحسب توصية أحملها إليك سيدي.

أدخل وائل يده في جيبه وسحب بطاقة هويته وورقة بيضاء مكتوبة باللغة الإنجليزية وممضية بإمضاء غريب وصعب للغاية.تناول المدير الورقة تمعنها وقرأها . ثم أمعن النظر في الإمضاء ، و طلب من وائل الخروج دقيقة لحين إنهاء مكالمة يريد إجراءها . كذلك فعل. حينها طلب مجددا من السكرتيرة السماح للفتى بالولوج . دخل الأخير وطلب منه المدير الجلوس قائلا له:

- اسمع صغيري، ستبدأ العمل اعتبارا من اليوم، ولكنني وحتى أكون صريحا معك ، لا أعدك بمنصب يحلم به جميع الشباب من أمثالك لدافعين :

الأول ،لحداثة سنك، وبالتالي أنت لا تفقه في مثل هذا النوع من الأشغال شيئا.

والثاني، أنت قاصر تفتقد للكفاءة و للمؤهل العلمي .

رد وائل:

-إذن ماذا سأفعل سيدي ؟

-سأرسلك إلى قسم الإنتاج ،حيث ستلتقي مسؤوله المباشر . لقد أمرته باستقبالك وتنصيبك كحارس لأحد المستودعات. ولن أبخسك في راتبك الذي سيكون مغريا لا ريب ، كما أنني أبشرك بوجود علاوات أخرى في حال أثبت جدارتك واستحقاقك. ولكن ضع نصب أعينك بني أمرا هاما، إن العمل هنا شاق جدا ومرهق أكثر مما تتصور وسيزداد حجم الصعوبة خلال الشهرين القادمين بحول الله . فالحرارة قياسية هنا لا ترحم .

لم يرفع وائل رأسه من الأرض، إلا عند انهاء المدير كلامه .كانت علامات الدهشة تعلو محياه لتوصيف مديره الجديد للأجواء التي سيعمل فيها. لقد قبل رغم كل شيء بالعرض حتى قبل أن يفكر. إنه في لحظة الإنسان المكدود . هو يتذكر أنه أتى إلى هنا بغرض مساعدة والده ببعض المال ،وهو يعلم ويدرك مدى تعرضه لضائقة مالية عصيبة بسبب تناقص مداخيل المتجر وزيادة الضرائب و الرّسوم وعدم إيفاء المدينين للمال الذي في ذمتهم. ثم لما لحق به في حقله الذي رأى فيه العجب العجاب.

لقد تأكد أيضا من أن يد والده أصابها العسر . عندما اضطر إلى بيع سيارته بثمن بخس. لم يكن هدف وائل الأسمى فعل كل شيء. ولكنه يريد إثبات ذاته ووجوده للصديق قبل العدو ،بأنه صار رجلا مقبلا على الحياة ، مشمرا على ساعديه ، هو من يقود العربة ويمضي بها قدما إلى حيث يشاء ، يريد كذلك أن يمحو تلك الصورة النمطية التي ارتسمت في أذهان أولئك المعتوهين من أصدقائه وغيرهم ، صورة الفتى الكادح الذي لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، الذي لا يقدم أن يقدم إضافة لا لنفسه ولا لأهله ولا لدينه ولا لوطنه ، صورة الفتى الذي يبكي بسرعة ويختفي وراء دموعه التي لا تنضب ، يترجى من وراء صنيعه ذاك إعادة إعمار المستودع الذي صار خاويا على عروشه ولو بالإسهام البسيط وبالنزر القليل. هو يدرك أن الأمر أشبه للمستحيل منه للممكن، فمهما بلغت النقود التي سيجنيها هي لن تفعل الأمر الكثير، إنه بالمفيد المختصر يريد أن يثبت لنفسه و لأبيه ولجميع من استهزأ به أو امتهنه ذات مرة ، أنه رجل مكافح شرس، يصعب ترويضه بسهولة.

لم تكن المسافة كبيرة بين المؤسسة وإحدى الزوايا التي طمح وائل الالتحاق بها . ارتأى - لهذا السبب الدافع عطفا على رغبته في وضع الوعد الذي قطعه لوالده موضع التنفيذ- أن يسجل فيها للدراسة .لقد كان يعمل أربع أيام متتابعة في الأسبوع ويرتاح ثلاثة .فنظم برنامجه بعد ذلك على هذا الأساس .

في أصيل يوم حار ،وبينما هو في محل عمله داخل المحطة إذ به يلتقي دون سابق علم بليديا الفتاة التي تدرس معه بالثانوية. لم يصدق ما يرى . تساءل في حيرةٍ وعجبٍ بالقول:

-ما هذه الصدفة الجميلة؟

اتجه بسرعة نحوها ملقيا عليها السّلام ،والدهشة ظاهرة على وجهه فبادرها بالسؤال:

-إنها مفاجأة رائعة أن تكوني هنا، لقد سعدت عند رؤيتك.

غمرت الفرحة ثغر الفتاة كذلك ،وردّت بسرعة:

-شكرا لك وائل، أنا أيضا جدّ سعيدة لوجودك هاهنا ، ولانطلاقك في العمل، بالمناسبة كيف تسير معك الأمور ؟

وعلى خجل كعادته ردّ وائل :

-متعبة جدا، لكنها جيّدة، لن أنسى لك صنيعك -ليديا -ما حييت ، لقد كنت نّعم الزميلة لمواقفك الكثيرة الراقيّة .

-لا تقل هذا الكلام لم أفعل سوى واجبي، وما أملاه عليّ ضميري ، دع عنك المجاملات والإطرائيات ، الأهم من ذلك ،كيف استقبلك أبي؟

- أوه . إنه شخص لطيف جدّا، رائع، لقد استقبلني بحفاوة بالغة.

-أريد أن اقول لك بأنني سأكمل دراستي في الخارج وهذه رغبة والديّ واليوم أنا عنده رفقة عائلتي التي تنتظرني هناك في السّيارة ، نحن هنا في مهمة قصيرة بعدها سنغادر ،بالمناسبة سأترك لك رقم هاتف منزلنا هناك، إن احتجت أي شيء أنا رهن إشارتك . المهم أوصيك بإلقاء السّلام على جميع زملائنا إن التقيت بهم في قابل الأيام .

-شكرا لك ليديا. سأفعل بحول الله . أنا ممتن لك.

انصرفت الفتاة بعد لقاء والدها في مكتبه. وعاد وائل إلى مكان عمله، وانتهت العطلة الصّيفية . وقتها طلب وائل عطلة عمل لثلاثة أيام، بغرض زيارة ذويه. وصل البيت بعد رحلة ماراثونية شاقة . ولأن السّفر قطعة من العذاب ولا يدرك ذلك إلا مجرب . ولأن الفتى يطيل السّفر هكذا مدّة، لأول مرة في حياته فلقد استقبل بحفاوة منقطعة النّظير من أهل بيته . طلب عبد الرحيم من ابنه -بعد تناول وجبة من الرّاحة - التحضير للتسجيل في الثانوية - لقد صار في القسم النهائي -ولكن رد وائل كان صادما، وبشكل غير متوقع .

صمت برهة ، وانطلق في الرّد على سؤال أبيه :

-أريد البقاء لإتمام دراستي في الزّاوية(مكان تدرّس فيه العلوم الشرعية).

-كيف ، ولماذا؟

رد وائل بشكل ربما لم يعتد عليه أحد، وبلغة الواثق من نفسه قال:

-أبي ،لقد أمضيت على عقد سنة، قابلة للتجديد ، ولن أتراجع ؟

-و دراستك ما مصيرها ؟

-لا ضير، سأؤجل دراسة هذا العام إلى عام آخر.

-هذا جنون يا ولد، كيف لك أن تفعل هذا الأمر، وقد وصلت إلى مرحلة حاسمة من مشوارك الدّراسي ؟

-أعدك أبي، بأنني سأعوّض كل الذي فات، ثم إنني أعدك بحصد شهادة البكالوريا، بإذن الله تعالى .

- أمم ،كما تحب.

ظلّ وائل يكتم خبر عمله في قلبه، ولكنه لم يستطع كتم السّر أمام مربيته التي باح لها بذلك ، باح وسمعت فأصيبت بدّهشة عارمة حال علمها بذلك ، لكنها لم تمانع أمام موجة اصراره الشديدة ، افتك منها وعدا بعدم البّوح بما سمعت ، ولما كان موعد الرّجوع منحها مبلغا ماليا للاحتفاظ به إلى غاية رجوعه في المرة القادمة .

لقد كان لزاما عليه الرّجوع بسرعة إلى مقر عمله فالأمور هناك مضبوطة ، تسير كعقرب السّاعة الواحد ،انطلق وهو يهمس إلى نفسه، كيف أنه ترك المنزل مضطرا ، وكيف أنه خبأ على والده عمله .

ثم كيف ترك زملائه في الصّف وهم على مرمى حجر من اجتياز الامتحان الحلم، دخل وائل في حلقة التفكير العميق الذي نالت حصة الأسد فيه ليديا، تلك الفتاة الرائعة التي قدمت له مساعدات جمّة ،لا يستطيع بحال من الأحوال ومهما فعل أن يرد لها جزء منها، لقد زاد إعجابه بها، بل إن صورتها لا تكاد تفارق فكره.

انهى وائل عقده الممتد إلى سنة كاملة في إرهاق كبير، لم تذهب تضحياته هكذا هباء منثورا ، لقد حصّل بعض المال وحصّل تناغما مع ذلك ، بعض العلم الشرعي.

وقبل الأوبة إلى بلدته ، طلب المدير منه ومن كافة العمال والإداريين الحضور إلى حفل تكريمي على شرف من انتهت عقود عملهم، وكذا العمال المخلصين الجادين لمكافئتهم على مجهوداتهم الجبّارة.

نظم الحفل وكان من بين الحضور" ليديا "ابنه المدير التي أخبرت وائل حينها بنجاحها في شهادة البكالوريا، وتسجيلها في إحدى الجامعات الأوربية ، لدراسة تخصص الطّب.

فرح وائل فرحا مجنونا عند سماعه بهذا الخبر الجذل، بيد أن فرحته تبدّدت لما علم منها أنه تمت خطبتها بشكل رسمي، لأحد أفراد عائلتها الكبيرة ، تبّلدت لحظتها حركات وائل واستغرق النظر إلى الأرض، لكنّه سرعان ما رفع رأسه وهو يبارك لها بصوت تختّرقه بحّة ألم ووصب.

لم تأبه الفتاة كثيرا بردة فعله بقصد ، أو من دون قصد كانت تلك ردّة فعلها، انصرفت دون إطالة، متمنيّة له الخير الوفير في حياته كلها .

انتهت فصول الحفلة الحزينة، فأخذ وائل مستحقاته ثم انصرف للرجوع إلى بيت أهله، ووخزة أنين وشوق تمزق نبضه. لم يستطيع التوقف عن التفكير طوال مدّة رحلة الرجوع الوجيعة. رجع وكاهله مثقل بتعب وضنك العمل الشاق ، عاد وباله ثكل بمشاكل والده العصيبة، جاء وقلبه ربما تعلّق بمن أسدت له معروفا غير ذي مرة ، ولكنها غادرت وغادر معها حلم آسر وردي.

بعد مشقة سفر ،وصل الفتى إلى البيت حاملا معه الخير الوفير من سفريته تلك، الآن وقد آن له مصارحة والده بكل الحقيقة كاملة غير منقوصة ، وقد أتم مهمته النبيلة على الوجه الحسن.

ربما لم يكن صعبا عليه مواجهة أبيه هذه المرة على غير العادة ، لسببين أولهما الجرح الغائر الذي تركته ليديا في فؤاده فأصبح بعدها وبعد نكسة البكالوريا ، كل عسير يسير ، وثانيهما حمله لبّشارة رائعة لوالده الذي يريد أن يخبره الآن أنه صار رجلا ناضجا يعتمد عليه .

إنه يخبره أخيرا بكل ما حدث معه، من أول ما تبلورت في فكره نية الذّهاب ، الى اللّحظة التي هم عليها الآن ، لم يكن بوسع عبد الرحيم إلا أن شكر لولده سعيه وجّده ورجولته ، سلّم وائل المال الذي جناه من عرقه وعمله لوالده ، الذي عاهده على إعادة المستودع وبالتالي تحقيق رغبته التي سافر واشتغل من أجلها.

عاد وائل إلى المتجر حيث يمارس تجارة أبيه، ورجع كذلك إلى الدراسة مجددا .ها هو الآن عاقد العزم مجددا على تحقيق حلم لطالما راوده ، لم يعد إلى ثانويته القديمة لمحو

كامل الذكريات المؤلمة ،بل سجّل بثانوية أخرى بعيدة عن مقر سكناه، إنها ثانوية كامل عبد العزيز الدمشقي، تمّ ترسيم الانتقال بشكل متأخر أي بعد دخول الطّلبة والتحاقهم بمقاعد الدراسة بشهر أو يزيد، سيسجل تاريخ وائل بأسطر و بأحرف من بلاتين هذا اليوم الثامن من أكتوبر مساء على السّاعة الثانية زوالا. إنه تاريخ مفصلي، ونقطة انعطاف هامة في تاريخ وائل الرومانسي العاطفي.

4. عُمري "كُلُّو".

همّ وائل بالتسجيل النهائي ،الذي أنهاه بسرعة خاطفة ثم توّجه إلى القسم الحلم، القسم المنشود، قسم الثالثة علوم طبيعة رقم واحد، فتح البّاب بعد طرقه طرقة خفيفة هادئة ، ثم تقدم واثق الخطى يمشي، سلّم ورقة الدّخول إلى أستاذ الفلسفة بعد أن أذن له الأخير بالدخول إلى الصف ، وبينما هو كذلك سمع صوت أحدهم يناديه من الطّاولة الثالثة في الصف الثالث، أراد أن يلتفت إلى حيث مصدر الصّوت فلم يستطع .

أدار وجهه في لحظة فارقة بزاوية لا تزيد عن عشرة درجات، حتى رأى وسمع وأحس بعيونه نورا متوهجا منطلقا من الصفّ الأول وبالضبط من طاولته الثالثة مقعدها الأيمن، قبالة مكتب الأستاذ.

ظل في لحظة لا وعي ، ذلك الوّجه الجميل الفاتن بعينيه، صورة التقطها بعين شغوفة ،خزّنها في ذاكرة عقل مكلوم جريح، وما بين الابصار والالتقاط والتخزين، حكاية ألف ليلة وليلة ، استغرق وائل عاما كاملا للوصول إلى حيث الصّوت الذي ناداه ،لأجل الجلوس معه ، لقد استغرق في وله لصوت قلبه ولهفة عيونه، لقد تهلّلت أساريره بالكامل. إنها أجمل صورة ربما راها في حياته، إنها أجمل بداية ، لقد كانت تلك هي البداية.

جلس والحب في عينيه يتأمل بإمعان، كان مشروع واستحال إلى مشروعين ، هي والبكالوريا ، هو وقود لها ، وهي بنزين له ، يريد وائل الآن معرفة كل شيء عنها في

لحظة جنون ، لم يكن -والحال هذه- من النّوع الذي يمعن النظر إلا في لحظته الأولى، النّظرة الأولى ، حيث غاب عن حضرة الوعي مرغما .

مرّت كل الأمسية الآسرة في القسم الجديد ، دون أن يعلم شيئا واحدا عنها ، غادر إلى البيت وفي الغد أمل ، وفى القادم متسع وفسحة. كان عليه ليلته تلك الاستعداد لغده الموعود ، أن يلبس أجمل ثياب، أن يضع عطرا فاخرا متمردا، أن يذهب قبل أن يجيء الحارس، قبل أن يقوم قائم من فراش نومه ، دخل القسم ودخلت ، بعد أن دخلوا ، كانت حصّة رياضيات حينها ، في لحظة ما أذنت الأستاذة لها بالإجابة عن سؤال، قالت لها تفضلي يا عواطف.

تلقفه، بأذن حريصة ولهانة، أخيرا عرف اسمها يا له من اسم جذّاب، قد يترك القلب في عذاب، كان عليه أيضا الانتظار مرة أخرى كي يعرف كنيتها ، لقد تمت عملية معرفة الاسم والكنية بنجاح في الحصة الموالية التي كانت حصة مادة الأدب العربي، ممتاز، ثم ماذا الآن ؟

إنه يريد معرفة كل شيء عنها .لكن تمهل يا وائل العام لا يزال أمامك طويل.والسّلم لا يصعد إلا بالدرجة الواحدة، وغدا بعيد، لكن لناظره قريب.

لم تكن لوائل من مشكلة رهيبة في حياته إلا الكلام مع الجنس الآخر، إنه رهاب شديد ذاك الذي يستولي عليه حينها، وإن فعل فإن ذلك لا يتم إلا شق الأنفس، فهو وإن حلّت عقدة لسانه مع إحدى الزميلات فلأنه يعتبرها أختا له أو أنه لم يشعر تجاهها بشيء كبير

،أو لأنها هي التي بادرته بالكلام، لكن أن تقوم لسمفونية قلبه قائمة بهذا الطول والعرض، فهذا الأمر يجعل من انطلاق لسّانه أشبه بالمعجزة.

إن جمالها الأخاذ، زاده بهاء حسن هندامها ونظافتها وحركاتها ، إنها تمشي بين زميلاتها كالملكة الفاتنة المتواضعة أو كالنحلة الملكة في قومها ،إنه حسن الخلق والخلق، فوائل بتلك التوصيفات كان مثار اهتمامه بها أكثر من اهتمامه بدراسته على الأقل في لحظتها العاصفة تلك ، ولأنه دائم البّحث عن تفسير واقعي لما يختلج قلبه من مشاعر طاغية ، فلقد كرّر سؤالا على نفسه :لماذا كل هذا الاهتمام المبالغ بها؟ هل هذا إعجاب ، أم ولهٌ وحبٌ في القلب ينساب ؟ ثم لماذا لم يكن لي نفس قوة الشعور تجاه ليديا أو تجاه غيرها ؟ أطلق العنان لمشاعره وترك الأيام تجيب عن تلك الاستفسارات.

ولأنه كان متيّم بالشّعر منذ نعومة أظفاره، فلقد كان يحاول أن ينظم أبياتا بطعم الغزل بأمر من قلبه....كانت حصّة الرياضيات ملائمة جدا من أجل ذلك... إنه لا يحبها قطعا لذا قطّع ورقة من كراسه الأصفر الغليظ ، ثم تناول قلما وبدأ يكتب:

أيتها الغيداء لكم أني بك متيم

لسحر عيونك يذهب الألبـــاب

لرقتك تضاهي بهاء الغانيــات

بشاشتك فاتنة و سواد الأهداب

إني أتمثلك في كل حلـــــم نديّ

برغم أفوله و مروره مرّ السّحاب

فيترك في صدري بذور الأمـــل

ويسقى قلبي ميـــــــــاه عِذاب.

لقد أثار في توجه وحبه للشعر العديد من الشّعراء الكبار ، عندما كان يدرس عند معلمه "حافظ "في المدرسة الخاصة باللغة والأدب العربي والنّحو والبلاغة، من ذلك شاعر تونس الخضراء أبو القاسم الشابّي رحمه الله، حيث أراد كتابة مقاطع شعرية ،محاكاة لأبيات مرّت بخياله:

بنظرة منك تزهو لي الحيـــــاة

وتسطع في عيني شموس الأمل

وأقبر في رمس هموم الزّمـــــان

ويبزغ في أفقي فجـــــــر عسل

وتفرش دربي زهور عطـــــــار

ويقطر عطرها في قلبي المشتعل

هذه الأبيات الشعرية لم يكن ليكتبها هكذا إنه ينظمها لعواطف،وهو يتمنى أن يقرأها عليها ، أو أن يسمّعها إياها ،إنه كان كذلك يقر في دواخله أن ذلك أمر ليس بالهيّن.

كان حضور وائل في الصف مبتغاه رؤية عواطف، سماع صوتها، وتقفي طيفها ، فلم يكن يريد من الدّراسة الشيء الكثير بعد هذا التسونامي الذي لفظ بالدراسة والشّهادة من قلبه خارجا، رغم أنه رسم هدفا عظيما في نفسه منذ أمد ليس بالبعيد،هدف البّكالوريا، إنه يؤخر شيئا بأخر ، أو بالأحرى يضحي بشيء من أجل عيون الثاني ،ربما كان تأخره عاما كاملا عن اجتياز الامتحان المنشود دافعا لأن يبرد قلبه وتتلبّد رغبته وتنكفئ أمام قوة ووهج الهدف الجديد .

وائل يدرك تمام الإدراك أن العام الدراسي قصير الخطى سريع الحركة ، فهو في رغبة وحرب داخلية شعواء ،يحارب على جبهتين عنيفتين - كل واحدة تأخذ من الأخرى جهدا ووقتا وانشغالا، بل وتضحية ، وليس الناس سواء لو كانوا محله - جبهة العواطف وسببها عواطف وجبهة الدّراسة وسببها شهادة البكالوريا ، كذلك إنه يعلم أن غيره من الطّلبة ربما لم يكن ليعاني نفس معاناته ،لقد أثرت في تصرفاته العاطفية أشياء ربما هو نفسه لا يعرف تفسيرا واضحا لها ،أو على الأقل لا يستطيع عدّها كاملة واحصاءها ، بقدر وضوح الدّوافع الكامنة وراء تهلهل مستوياته في الدّراسة وعدم تحقيقه للطّفرة و الوثبة اللازمة، الوحيد الجميل في القضية أن وائل ورغم وهنه وكراهيّته للتخصّص العلمي، إلا أنه شكر الأقدار التي رمته في هذا القسم بالذّات، ربما ليعيش أجمل أيام حياته فيه .

6.نبضات قلب.

كل يوم يدخل الصّف، يراها فيزداد انبهارا بها، بدأ يتيّقن أن خفقان قلبه لها لم يكن بحال من الأحوال إعجاب ولا تصحيح أوضاع ، أنه يجد فيها أشياء ربما لم يجدها في أنثى التقاها ، رغم عوز تجاربه ، وقصور رصيده ، كذلك فإنه يطرح على نفسه أسئلة عدّة، فيجيب على بعضها ويتبهم الرّد على غيرها، فاليقين يختبئ وراء حدود اللامعرفة.

في لحظات تفكير ووحدة يطرح على نفسه سؤالا هل هذا الذي أنا فيه يندرج ضمن كلام رسول الله عليه الصلاة و السلام (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف)؟ ثم يدور بخلده ، أن لا جدوى من مثل هكذا مشاعر بل لا بد من وأد هذه العواطف التي تعصف بكيانه لعدم تماشيها مع الدين الذي يعتنقه والذي يحرّم هذه التجارب من أساسها ، ولكنه يخبر نفسه أن حبه عفيف وهو يريدها مشروعا لزوجة المستقبل ، إنها فارسة أحلامه التي يتمناها ويرسمها بخاطره ، ويرجوها في حله وترحاله ، وأن تكون أما لأولاده.

في محل والده، كان كالعادة يخلفه ويحل محله حال غيابه ، فكان بصره ينطلق في رؤية صناديق الفواكه اللذيذة المتنوعة لونا وشكلا وحجما و ذوقا فيتمعن بقوة، لكنه غير آبه لأكلها ولا لشمها ولا لتذوقها ، إنه يفكر بأمر آخر ، يفكر في خلق الله ، سبحان الله (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) .

ومع ذلك لكل منا رغبته وشغفه بفاكهة واحدة دون غيرها أو مقارنة بغيرها، هو يدرك أن أمورا دافعة لولعه بها ، بيد أنه يقف عاجزا عن تفسير ميله لها على وجه

مقنع ودقيق فيقول ، هذه بتلك ، تلك بالضبط حالتي مع عواطف فرغم وجود كثير من الفتيات اللاتي عرفتهن والأكثر اللاتي يدرسن معي في نفس الصف إلا أنني لم أمل إلا لعواطف دون سواها، بل الغريب في الأمر أن حكايتي بها بدأت من أول نظرة ولا أزال.

يمر الوقت بسرعة رهيبة، إن وائل بهذا التوصيف لم يعد يحاربه فحسب ، بل كذلك هو يحارب عقدة الخجل ويكافح وباء التردد وتصيّد الفرص السانحة أو حتى أنصاف الفرص، ولما لا صناعتها من عدم ،لكن لم يكن يعلم أن تلك الفرص المهدرة ستزيد من تعقيد وضعيته أكثر فاكثر، خاصة النفسية منها.

ماذا لو استغل أحدهم الفرصة ليتقبّض عليها؟ ماذا لو انتهت فصول العام الدراسي دون أن أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ؟ ماذا لو غيّرت الصف إلى آخر؟ وغيرها من الأسئلة المقلقة و التي أصبحت أسطوانة تدور ليل نهار في فكر وائل، كل يوم جديد يقطع عهدا على نفسه بأن يفعل شيئا. بأن يكسر حاجز الصمت الفظيع، بأن ينهي السّير في الشارع الطويل، يحكي له كل مكنونات قلبه التي يريد إسماعها لعواطف دون سواها ،بأن يسقي ظمأ القلب ولكن.

أوصد باب القسم المهترئ القديم ذات أمسية دراسية فحاول جميع الطلبة أن يفتحوه فلم يستطيعوا ،وقف رشيد أحد تلاميذ صف وائل قائلا :

-أنا و عواطف فقط من يستطيع فتحه دون غيرنا ،ابتسمت خجلا وطأطأت رأسها تحت الطاولة .ذهل وائل لما سمع ، هل ما قاله هذا الزّميل له مغزى ومعنى ، أم أنه مجرد حركة عبثية الغرض منها إضفاء الطّرفة ليس إلا؟

انصرف بخياله بعيدا وزاد تأنيب الضمير فيه كثيرا، لم ينم تلك الليلة من كلام زميله، وفي لحظة تحدي ومجابهة عقد العزم على أن يوم الغد سيكون فيصلا في القضية التي طال أمدها، نهض صباحا و لبس أجمل ثيابه ثم انتعل حذائه و وضع عطرا باريسيا فاخرا، تشم رائحته من القطب الجنوبي ، ولأن الشعر رمز جمال الإنسان، فلقد سرح شعره الأسود الطويل وهذّب لحيته ، ثم انطلق بسرعة الأسد الضاري الذي يريد أن ينقض على فرصة ، ولج القسم ثم انتظر دخولها....

وفعلا حدث ،دخلت برفقة صديقتها منى التي لا تكاد تفارقها، سارت أمامه بضع خطوات بيد أنه لم يتكلم.....واصلت تحركها إلى أن جلست في مكانها، سار مترا أو مترين قائلا في قرارة نفسه : أكلمها عند جلوسها أفضل، وماهي إلا برهة زمن حتى دخل الأستاذ مفسدا مشروع اليّوم وظل حلم وائل يراوح مكانه.

مرت الحصة الأولى فالثانية دق جرس الاستراحة الصباحية و نهض مسرعا إلى الممر لانتظارها علّها تكون لوحدها ، رفعت محفظتها -وكانت لحظتها برفقة صديقتها- و توجهت نحو الفناء، لقد مرّت على وائل دون ينبس ببنت شفة .انقضت فترة الاستراحة وولج الجميع، إنها ساعة الحصة الثالثة والأخيرة لفترة صبيحة اليوم ، مرّت كلها وهو يحدث نفسه بصوت مختنق.

لماذا استطعت التكلم مع ليديا بسلاسة ويسرٍ بل إنني طلبت منها بأن تتوسط لي عند والدها ولمّا وصلت إلى عواطف اجتاحت لساني موجة عواصف.

أصر في نفسه على أن لباسه الأنيق وعطره الباريسي سيشكلان زخما إضافيا في جعله يقدم على الكلام معها، ولكن. انتهت الحصة وخرج الجميع إلى منازلهم إلا وائل الذي بقي متسمرا في الشّارع يضرب كفا بكف، كيف لا وهو لم يستطع حتى السّلام عليها فما بالك بالكلام معها.

لم يكن حال الغد بأحسن حال من أمسه، لقد ضيّع وائل فرصة أخرى فأيقن في لحظة اعتراف بائسة بأنه لو يلبس ثيابا من ذهب ويتعطّر بأفضل عطر في التاريخ ، فلن يشكّل له هذا الأمر إضافة، ان المشكل فيه هو وليس في ما يلبس أوفي ما يأكل أو بما يتعطر؟

وفي لحظة ذروة الصراع الداخلي قال مستهجنا نفسه: لما تكلم رشيد بذلك الكلام، انظر يا وائل كيف كان لباسه وانظر كيف كانت هيئته ثم انظر كيف كان حاله. لقد كان الإشكال في الشّجاعة، وليس حتما المظهر.

بدأ يتناهى إلى مدارك وائل بأن الوقت يكاد يطير منه، فلا هو بالكلام مع عواطفه ولا هو بالدّراسة والتحصيل والتحضير لشهادته الموعودة. لقد قرر في لحظة فارقة الالتفات والالتفاف حول المشروع الحلم ، مشروع شهادة البكالوريا ،حلمه وحلم أهله الذي قد يكون وسيلة قد تحقق له الوصول إلى فتاته؟

فعواطف من جهابذة القّسم كفاءة وتحصيلا وهي مرشحة فوق العادة للظفر بالشّهادة، فيجب عليه النّجاح للوصول إليها، لكن سرعان ما يضرب تصوره هذا عرض الحائط، فهل يعقل أن يكون النّجاح دافعا مسهلا للتواصل و للكلام معها؟

فعل وائل الأفاعيل و رتب فرصة بل مائة فرصة للكلام معها وكسّر طابو هات الصّمت، فغير مكان جلوسه حيث انتقل إلى صفها ووقف كثيرا أمام باب القسم للتكلم معها و وظّف إمكاناته الكروية البديعة في حصة الرّياضة للّفت انتباهها، وغيّر لباسه وتسريحة شعره غير ذي مرة، لكن دون أن يحرز نتيجة، كاد يجن لعقدة لسانه الصامت. فيوبخه:

-لماذا لا تريد الانطلاق؟

إن هذا الأمر- والله -ليحزنه ويمزّق قلبه، أراد أن يجرّب البوح بالأمر لأحد أصدقائه علّه يدله على حلّ ، أو أن يرسله إليها للكلام معها لكنه لم يستطع فكرامته و رجولته لا تسمحان له بالعزف على هذا الوتر.

اهتدى إلى فكرة ذات ليلة وهو على فراشه والنوم قد هجر عيونه، فكر بالبوح الى والدته كل حيثيات القصّة وبأن يطلب منها أن تخطبها له، استغرق في التفكير إنه يريد قطع الفرصة أمام ذاك الزميل المعترف ضمنا بإعجابه الكبير بها، ثم إنه يريد ربح الوقت وأخيرا كسر حاجز الصّمت المطبق الذي كبّل لسانه .لم يدع خيط الصّبح الأبيض من الظهور فانطلق سريعا إلى حيث مربيته فتكلم معها وصارحها بكل شيء لكن مربيته رفضت مقترحه جملة وتفصيلا بعد أن أصغت له جيدا ، فهي لاتزال تراه

حديث السّن والأولوية لإكمال مشواره الدّراسي وتحصيل الشّهادة والولوج الى الجامعة وتكوين نفسه جيدا، ورغم الحاحه إلا أنها صدّته بقوة ، فرجع إلى فراشه يجر أذيال الهزّيمة .تراه ماذا سيفعل؟

خلال حصة الرّياضيات هذه الحصّة المقززة له. حدث لوائل حدث تركه يحبّها أو على الأقل يحترمها كانت الأستاذة منهمكة في حل إحدى الدّوال اللوغاريتمية، فأرادت أن يشاركها الطّلبة الحل فسألت:

- طلبتي الأعزاء مجموعة تعريف الدّالة التي أمامكم من المجال ما لانهاية (+) إلى ماذا؟

فنطقت عواطف إلى المجال ناقص إتنان أستاذة ، في لحظتها كان وائل جالسّا وراءها فالتقط كلمتها بسرعة وأعادها: -كما قالت عواطف ، ناقص إتنان .

فانفجر الجميع يرسم ضحكة واحدة، من هذا الرّد غير المتوقع. لقد شعر لحظتها بأنه حقق إنجازا سيخلّده التّاريخ إلى الأبد .لقد خال نفسه بأنه فكّ عقدة لسانه إلى ما لا نهاية.

أسدل الفصل الأول ستاره منصّبا عواطف أحسن الطّلبة في القسم بإجازة لوحة الشرف الأولى بعد أن أبلت البلاء الحسن في كل المّواد مراهنة بذلك على نجاحها في الشّهادة المأمولة، إنها فتاة جميلة ذكية فزادت اتقادا ووهجا وشعلة وحلما في قلب

وائل الذي أنهى الفصل بنتائج حسنة في عمومها .لقد كان يتمنّى أن يمتحن في مادة الخجل و التردد ،ربما كان سيحصد أعلى معدل في المقاطعة بأسرها؟

أصبح وائل يجلس كثيرا في محل والده الذي اشترى حقلا فلاحيا أخر بالمبلغ الذي باع به حقله الأول، فكان يمارس التجارة ويأخذ معه لوازم الدّراسة للمراجعة كلما تحيّنت له الفرصة .وفي الحقيقة لم يكن لتلك اللوازم بدّ سوى لأنها تذكره بالصّف و بعواطف. ماذا قالت وماذا فعلت وماذا لبست ؟ وكيف سكتت ولماذا تكلمت؟ إنها عطلة الشّتاء تمر أيامها ولياليها كأنها سنوات طويلة حالكة.

أمام عجزه المبدئي في اثبات شيء في قلبه والتعبير عما يختلجه من شعور ، أراد وائل تغيير استراتيجيته، ليس لأنه قائدا حربيا محنّكا ولكن من باب - أخوك مرغم لا بطل - أراد ان يتمتع بالوقت الذي يقضيه في الصف. أراد أن يكون في المكان عينه الذي تتواجد فيه فهذا أدعى لأن يعيش لحظات آسرة جميلة، سيتمنى ربما يوما لو يجدها تباع فيشتريها .هل هي إرادة عقل أم قهر وغلبة قلب ؟

بزغ الرّبيع بكل جماله وشبابه، بكل نظارته وعنفوانه وعذريته، بكل أزهاره وأنهاره، بكل خضرته ونظرته، صار السّير إلى الثانوية ممتعا جميلا، فالحقول التي على أعتاب الطريق زينتها الورود والأزهار والعطور، وتلك الرّبوة الجميلة خلف الجسر الكبير وقد زينتها تلك الأبقار - ذات السلالة الهولندية البديعة -السّوداء والبيضاء التي تسر النّاظرين و تأسر قلوبهم، تتخللها بيوت ريفية ومنازل فاخرة تخال من نظرتك الأولى أن أهلها يتقلبون في مترفهم ومنعمهم، وتلك السحابات العاليات يرسلن ببعض

القطرات المهاجرة من بعيد، فتسقط غيثا نافعا يعانق وجه الأرض الظمآن، وقوس الرحمان بألوانه السّبعة البهيجة ينطلق من كبد السّماء ثم يخبئ نصفه الآخر في حضن الأرض .

لقد تكرر المنظر أكثر من مرة بل أكثر من مرات وكأني به يريد رسم لوحة أبدية في ذهن وائل ، وبأن يجعل منها رابطا شرطيا وليس ظرفيا، أزليا وليس لحظيا ، متسّقا بعواطف مذكرا إياه بها . فالرّبيع عواطف، وعواطف ربيع .

لقد كانت أجمل اللّحظات كذلك تلك التي درس فيها وائل بمعيّة زملائه أشعار بنزعة متجددة رومانسية لأبي القاسم الشابّي وايليا أبي ماضي في مادة الأدب العربي ، إنها ترجمة رائعة لتلك المّوجات الشّاعرية الرّومانسية الغنّاء التي تختلجه منذ مدّة فأراد مجددا أن يمتدح عواطفه بمحاولة من صنع بنات أفكاره مردّدا:

يمر علي الدّهر ثوانيـــه بأعوام

و ترى قلبي شغوف البّال ولهان

سهام من نار تريد اختـــــراقه

فتدعه رماد اللّحم فـــــــــان

بحب التي شغلت مشاغلـــــــه

وكانت عليه ياسمين وريحـــان

فما كان ببال ولا خطر بحسبــان

عواطف ،عواطف عاطفتـــــــي

يا من زرعت في روحــي جنّة أفنان

كان يدرك أنه لا يتقن كتابة الشعر، ولكنه كان يود التعبير عن مكنوناته، بأي كلمة ، كان يتفاءل بيوم ربما تقرأ له فيه ما جادت به قريحته، فتصل المّشاعر قبل التعبير .

مرضت عواطف ذات مرة، و لم تأت إلى الثانوية، لم يكن كذلك بوسع وائل أن يعلم سبب مرضها ومدة غيابها، فهو كما كان بعيد ا خجولا في التواصل معها شخصيا ، كان في الوقت ذاته يشعر بنفس الإشكال مع محيطها، فصديقاتها على قلتهن لم يتكلم معهن في موضوع عام فكيف له أن يحادثهن في موضوع خاص . إذن كان عليه مداراة أمره في قلبه والانتظار في شوق و ألم منتظرا ما ستسفر عنه قادم الأيام من جديد، بقلب وجيع و بهم فظيع...

مرت ثلاثة أيام كأنها الدّهر، وكأن شّعره الذي قاله منذ أيام يتحقق ،عندما قال يمر علي الدّهر ثوانيه بأعوام- ، في صبيحة يوم جميل أطلت عواطف أخيرا فهبّ الجميع للاطمئنان قائلين - الحمد لله على سلامتك - لم يكن وائل لحظتها في القّسم، لقد كان في

الادارة لسحب شهادة مدرسية، أكمل الاجراء ثم عاد إلى صفّه ليجد أميرة قلبه قد رجعت إلى مكانها الذي ازداد رونقا وجمالا بها ،لقد كانت لحظة حالمة رائعة ملهمة فريدة تلك اللحظة .

وفى لحظة شوق واشتياق ، في لحظة ألم ووجع ، في لحظة حبّ وحنان ، في لحظة غياب عن الوعي، اندفع نحوها وفى خجل رهيب قال :

-عواطف،اشتقت لكِ، كيف حالك؟

ما هذا الانطلاق الصّاروخي، انطلاقة جنون ؟ هل هي كلمات آسرة عابثة ؟ هل هو في حالة وعي أو لا وعي؟ هل كان يحتاج إلى ظرف مجنون كهذا ليقدم على قوله هذا ؟

على كل إنها لحظة ساحرة باهرة لا تقدر بثمن ولو كان ذهبا، انفكت عقدة اللّسان، واندحرت هواجس القلب بل اندثرت....

لا هو توقع تصرفه هذا ولا وضع في حسبانه شدّته التي تجاوزت تسع درجات على سلم ريختر، ضرب أنحاء المنطقة بل بركانا عميقا دفعت حممه على بعد الأف الأميال أو تسونامىّ بحري أخفى قرية برمتها.

لم يكن هو وحده من لم يتوقع فعله هذا، هي كذلك اندهشت من هذا الفعل الذي لم يفعله جريء من قبله، فكيف أن يفعله هو ؟ صمتت في لحظة غرابة ثم ابتسمت ابتسامة عريضة قائلة:

-الحمد لله أنا بخير شكرا على سؤالك .لم يفك وائل شيفرة كلاهما إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة على سماعه لتلك الكلمات ، أمر مثل هذا جعل وائل يفقد عقله لحظات فكاد أن يغشى عليه؟ إنه حلم وقد انجلى.

رجع إلى مكانه منتشيّا انتشاء الفائز بحرب ضروس المفتّك لمغانم بعيدة أو المحقق مجدا تليدا، إنه يفوز بالمغنم فعلى " قدر المغارم تأت المغانم " وصل إلى حيث يجلس وهو يفكر فقط في تلك اللحظة الحالمة ويا ليتها تتكرر كل لحظة .عاد إلى المنزل فلم يتذوق قهوة ولا مر من حلقه شيء، فقط إنه القلب وسلطانه على كل الأعضاء، إنه الآمر الناهي.

ليلة مثل تلك اللّيلة لم يكن للنوم مكان فيها .فقط شريط أضحى ذكرى قريبة ، ذكرى لحظة يكررها كل لحظة ، ليصبح على غد مشرق جميل، غد الاعتراف والقرب، لاغد الاغتراب والبعد.

انطلق وائل بأكثر حماسة و شوق إلى الثانوية ، التي أصبح يمجدها ويحبها لما لها من رمزية في وجدانه، لقد جعلته يحب كل شيء يحب الشوارع و الممرات المؤدية إليها يحب الاشجار والنباتات التي على قارعة الطريق المفضي إلى باحتها، بل إنه يحب الحصى والحجر والبشر الذين في دربها المنثور فوقه زهور وورود .

لقد كان متحمسا للكلام معها مجددا، لكن الخوف والتردد يزعزعان مساره من ردة فعلها، خائف من الانطلاق مجددا نحوها خائف من كل شيء، لم يجد لديه من تفسير لهذا التكبيل إنه يدرك جيدا، والعام على بعد خطوة من الرّحيل بأن عواطف إنسانة

مثالية رائعة القسمات والبّسمات ، فهي ليست بحال من الذين يتأبطون شرا وألسنتهم تستعر نارا تمتلئ حرا، إنها مسالمة حلوة الكلام ، لكنه رغم ذلك لا يستطيع مواجهتها مرة أخرى ، تلك المرّة كانت الأقدار والظروف دافعا رئيسا في حصول ذلك الزّخم الحالم . لقد بدأ يدرك أن عليه انتظار شيء جميل يحصل على سبيل المفاجأة،

ربما يستطيع تكرار الذي حصل رغم إقراره وعدم تمنيه لهذا الأمر، إنه يرنو إلى أن يكون هو صانع الظروف وليست هي من تصنعه و توفر له الفرص أو أشباه الفرص.

اقترحت إحدى الطالبات في صف وائل أن ينظم القّسم حفلا تذكاريا قبيل نهاية العام الدراسي ، حيث تقدمت بطلب من أجل ذلك للإدارة التي قبلت المبادرة دون تردد ، إنها فرصة أخرى قد تكون الأخيرة لوائل لفك الحصار وكسر صمت الجدار . إنها حالة جديدة من التّرقب الكبير لكي يناور ،لكي يحاور ، لكي يبادر.

بدأ التنظيم لهذه الفعالية مبكرا من أجل إنجاحها .لم يكن الجميع على علم بما سيدور من برامج أو من سيحضره من غير طلبة القسم .

بدأ الحفل في موعده، تناولت الفتاة المنظمة للحفل الكلمة شاكرة الجميع على حضورهم، لقد حضر الجميع دون استثناء . وها هو وائل يجلس في الطاولة الأولى للمدرج الكبير و عواطف في الطاولة ما قبل الاخيرة، اندهش جميع الحضور عندما اردفت تقول :

-من لديه كلمة أو شيء في قلبه تجاه آخر فلا يفوّت الفرصة نحن بأخر المشوار والعام الدراسي يحمل حقائبه معلنا رحيله بعد فترة وجيزة ، وربما لن نلتقي مجددا.

ذهل وائل لما سمعه من زميلته منظمة الحفل ، إنه يخاطب نفسه بالقول :

-سبحان الله كأنما دخلت إلى قلبي وعلمت ما فيه من مشاعر و رغبة جامحة ، أو ربما أحست بأن الصّف فيه كثير من المعذّبين الذين يتحرّقون شوقا لمثل هكذا لقاءات ، أولئك المعذبون الذين قهرتهم الظروف وأكملوا عامهم وهم ينزفون ألما و حرقة.

لم يكن في تلك الحفلة أحد أجمل من وائل ، هنداما وشكلا و رائحة، ولكن ربما لم يكن من أحد منهم في مثل خجله و تردده وتأخره.

لقد ظن أنه بجلوسه في الطاولة الأولى سيكون أول من يعبّر عن مشاعره الدفينة، بدأت عقارب السّاعة تتحرك...وتتحرك و تتحرك .تكلم الجميع، أكل من صنوف الحلويات الجميع... تحرك الجميع، إلا هوكان أشبه للصنم منه للإنسان، فلم يكن من المتكلمين و لا من الآكلين و لا من المتحركين.

دخل أحد المراقبين المدرج قائلا :

-لقد انتهى الوقت المخصص لكم ، ارجعوا كل شيء إلى مكانه .

نظف التّلاميذ المكان ، و سلموا مفاتيح المدرج إلى الإدارة ، ثم انصرفوا في لحظة قاصمة فاصلة وبقي بعض التلاميذ فقط يعبرون سلّما يؤدي إلى باحة الثانوية. كان من بين أولئك رشيد وعواطف وكذا وائل الذي يدفع نفسه دفعا إليها، يؤنب تلك

النّفس التي بين جنبيه تارة ثم يعود ويعتذر لها تارة أخرى، يخطو خطوة أولى نحو الأعلى ويضيف الثانية فالثالثة دون أن يرفع رأسه ولو بسنتمتر واحد عن الأرض .و ما إن بقيت له سوى بضع خطوات عنها حتى رفع رأسه فإذا به يرى عواطف تقف تريد الذهاب . ولكن رشيد زميلهم بالصف أمامها يريد التكلم معها.

انصدم وائل من هول ما رأى ،فهمّ بالانصراف راجعا. في الحقيقة لم يكن ذلك الأمر سوى ذريعة احتج بها . فهل كان في مستطاعه أن يذهب إليها لمصارحتها لو كانت وحيدة ؟

اقترب امتحان البكالوريا فأصبح قاب قوسين أو أدنى وها هي الإدارة تسلم استدعاءاته على طلبتها ، إن القدر يمنح فرصة بلاتينية أخرى لوائل الذي تم توجيهه إلى نفس مركز امتحان عواطف والصدفة الجميلة الأخرى ، أن المركز هو نفسه ثانوية الدّراسة ، ولأنه صار يعلم بأنه لم يعد يستطيع أن يفعل شيئا لوحده ، وتجاربه في ذلك أصبحت حبلى ، فإنه أراد الاستعانة بأخته في العملية، أخته التي تمّ أيضا توجيهها إلى نفس مركز الامتحان.

لقد ترجى أخته لكي تتكلم مع عواطف بعد أن عجز هو عن التكلم معها . لقد أخبرها عن جميع مواصفاتها، تمهيدا للتكلم معها ، ربما يكون ذلك كفيلا لفعل شيء ما ، ولتكتمل عملية المساعدة فلقد كان يذهب وينتظر معها ،كلما أتيحت الفرصة لذلك، وفي الخاطر مراد بأن يلتقيا بها .

مرّ اليوم الأول دون شيء يذكر والثاني كذلك، وانتهت الامتحانات دون جديد مبشر، أيام مرّت كأنها دقائق معدودات.

انتهت البكالوريا، وأحس وائل بالهوان والوّجع في صدره أضحى وجعان ، وجع الفرقة وعدم الوصول إلى مبتغاه ، ووجع ما فعل في الامتحان، لقد أصبح متيقنا بأن لا بكالوريا هذه السّنة تيقنه من أن لا عواطف هذه السّنة .

حمل نفسه المهيضة يوم ظهور النّتائج إلى ثانويته ليتقين من الخبر اليقين، الخبر الذي شعر به منذ أيام، الخبر المفرح الحزين، ومفاده أن عواطف نجحت، فلم يكن عليه سوى الانتظار يومين آخرين، وهو تاريخ سحب الشّهادات ، رفع شتاته وانتظر من السّابعة صباحا إلى السادسة عصرا ، دون أكل و لا شرب ، ثمة شيء آخر ،لقد جاء الجميع إلا هي، جاءت صديقتها منى التي تجلس معها في نفس المكان، أراد وائل أن يكلمها فلم يستطع، جلس كل ذاك الوّقت ،ولم يكن يريد رؤية أحد من الزّملاء خاصة النّاجحين منهم . لقد أصابته عقدة الخجل من أولئك القوم ومن نفسه ومن الناس جميعا .

حل الظّلام الدّامس وبسط سلطانه على المكان وعلى فؤاد وائل المصدوم المكلوم .لقد انتهى كل شيء ، انتهى الحلم الوردي الآسر الجميل، تلك الطّريق الرائعة بخضرتها وسحرها وجمالها أضحت كابوسا فظيعا شنيعا ، أضحت ليلة دهماء كحلاء ظلماء سحماء ، كيف لتلك السّماء التي فوقه كانت تبعث بضوئها و نورها وشعاعها لتضيء له تلك الطّريق يوما ما فتستحيل اليوم إلى عتمة مكفهرة موحشة ،كيف لتلك

الخطى الآنسة أن تبدو الآن بائسة يائسة، كيف لتلك البسمة العميقة أن تصير عقيمة، إنه شعور بالضّجر و بالألم، بالوجع، في الصّبح في اللّيل في السّحر ،مواجع ، تقض المجالس والمضاجع، كل هذا الكلام وهذا الزّخم من المشاعر، بل أكثر، لا يعبر عن حالة وائل الذي تذكر في لحظة زمن ما حدث له أيام اختطافه ،الشعور واحد والوجع حاقد، لقد تذكر قول الشابي في أحد أشعاره الحزينة:

أَيُّها الحُبُّ أنتَ سِرُّ بَلائِـــي

وهُمُومي وروعي وعَنـَائي

ونُحُولي وأَدْمُعي وعَذَابـــي

وسُقَامي وَلَوْعَتي وشَقَائـــي

وشُعاعِي ما بينَ دَيْجُورِ دَهْري

وأَليفي وقُرَّتي وَرَجَائـــــي

يا سُلافَ الفُؤادِ يا سُمَّ نَفْسي

في حَيَاتي يا شِدَّتي يا رَخَائي

الهيب يثورُ في روضَةِ النَّفْسِ

فَيَطْغى أَمْ أَنتَ نُورُ السَّـــماءِ

أَيُّها الحُبُّ قَدْ جَرَعْتُ بِكَ الحُزْن

كُؤُوساً وما اقْتَنَصْتُ ابْتِغَائــي

ثم تذكر قوله:

- أشعر الآن أني غريب في هذا الوجود، وأنني ما ازداد يوما في هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة، و شعورا بمعاني هاته الغربة الأليمة ، غربة من يطوف مجاهل الأرض ويجوب أقاصي المجهول . ثم يأتي يتحدث إلى قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدا منهم يفهم من لغة نفسه. غربة الشّاعر الذي استيقظ قلبه في أسحار الحياة حينما تضجع قلوب البشر على أسرّة النوم الناعمة .فإذا جاء الصّباح وحدثتهم عن مخاوف الليل واهوال الظلام، وحدثتهم في أناشيده عن خلجات النجوم و رفرفة الأحلام الرّاقصة بين التّلال ، لم أجد من يفهم لغة قلبه ولا من يفقه أغاني روحه. لا يطفئ اللّهب المتأجج في دمي. موج الأسى و عواطف الأرزاء، فاهدم فؤادي ما استطعت فإنه سيكون مثل الصخرة الصماء.... لا يعرف الشكوى الذليلة ولا البكا و صرخة الأطفال والضعفاء.....ويعيش جبّارا يحدّق دائما بالفجر الجميل الثاني....سأظل أمشي رغم ذلك عازفا قيثاري مرنما بعنائي.... فهل هذا ممكن الآن ؟

لم ينعم وائل بنومة هنيئة منذ تلك اللحظة إلى أسبوع كامل يؤنب نفسه تارة ثم يهجوها ويقسو عليها بعبارات موجعة محطمة ، ثم يعود فيشفق عليها ويكلّمها بحنان وعطف

تارة أخرى ، تلك النفس المقهورة المحرومة الموجوعة المكبوتة هي الآن تنجرف إلى دمار.... فكيف الحل ؟ وما السبيل الى ذلك؟

ككل ليلة وعلى وقع ذكريات الدراسة المنطوية صفحاتها دخل وائل منهك الأطراف متلبّدها ،شرد الذّهن مبعثر الأفكار.... إلى الدار ، أراد الاستلقاء على سريره....حاول وحاول دونما جدوى ،ولج إلى فناء البيت باحثا عن سمر وردي وسط نسمات عابثة ، تريد أن تفعل شيئا أمام زخم الحرّ الشديد، الذي زاده طين الارهاق والأرق بلّة ، لكأنه يحس بتحالف فريد من نوعه بين رطوبة الجو المنهكة وتلاطم أفكاره المبعثرة...كالعادة لم يظفر بأنفاس شذيّة تعيد له روحه، ما جعله يفكر في الأوبة إلى سريره بالدّاخل، لكن بعيد برهة وجد نفسه مستلقيا بعد أن سارت به أفكاره بدل رجليه ....دفن رأسه بين ذراعيه وبدأ بأحلام يقظته كأنها تريد بسط الفراش لأحلام النّوم الهاربة ، مخرت سفن خياله بعيدة فوق جداول زرقاء تريح وتسرّ الناظرين ، تسرّ من ضاقت بهم الدنيا بما رحبت، هناك في الأفاق تمتلئ سفينة الأحلام بسلال من ورود عطرة بنفسجية حمراء بيضاء...تأسر القلوب والألباب .

كلما خطت السّفينة خطوة تراءى له في الأفق الرّحب مع بزوغ شمس ذهبية صورة التي تخلد في كيانه فيدور في ذهنه أن يتجرد من لباس الثقيل البائس ويبحر بحره للوصول إليها بسرعة..... ثم يتذكر قول الشاعر لا مارتين:

أهكذا تقضي دوما أمانينا . نطوي الحيـــاة وليل الموت يطوينا

تمضي سفن الأعمار بنا ماخرة . بحر الوجود ولا تلقي مراسينا.

لكن ليتذكر مجددا إرادة الحياة فيواصل الإبحار...توسطت شمس النّهار كبد السّماء و لا زالت الصّورة محل ملاحقة...هل هو سراب.....لقد استلقى على ظهر زورقه....صالت وجالت أفكاره في كل مكان....تذكر ذكرياته التي ألهبت نار الحنين فيه و أوقدت كوامن صدره المثخن وجعا .يريد ان لا يظهر بمظهر المنهزم المنصهر الذي لا يقهر و لا يصهر ، فهو المتيم الولهان، القوي بحبه وبكفاحه .

العاصفة تتربص به وصفيرها يزداد و الأمواج تتلاطم والدموع في العيون تنضب...لقد تخيل في لمح البصر صورة الحبيب... بل هو بلحمه وشحمه و عظمه...ظهر الذي أحبه هو بطله...ظله الذي ظلّت صورته تملأ افاقه ، ظهر يحمله إلى شاطئ الحبّ والنجاة...ليحس بيد توقظه ، إنه صوت مربيته تقول:

- يوم جديد لعمل جديد، وقد نهض ماسحا عرقه، وهو متيقن أن الحلم مستمر بلذة الأمل المنشود.

قام وائل من مكانه متناولا ورقة وقلما ثم همّ يكتب:

ستشرق شمس الربيع الخضل ويعبق بنسماته الوردية على شراع زورقي سأرحل وأسافر في بحر عينيك...لن أخاف حتما ففوقي ضفّة وتحتي أخرى .أنا بين ضفتين ، أعبر الحدود دون تأشيرة...لن أترك قطع اللّيل تجنّ علي فجفونك عواطفي ، شموس

تنير أطيافي....نبرات صوتك تناغيني وتغزل لي عيونا من الشّعر ، فتنسي الزورق أهاته ، ويحلم في فلك هواك. لقيك أم لم يلقاك حتما لن ينساك.

لقد أصبح وائل مدمن شعر رومانسي ، بشعر ينفّس عليه بعض ما يدفن في قلبه من أوجاع ، كانت لذيذة لكنها الأن ربما أصبحت غير ذلك ، رجع الأن إلى العمل في محل أبيه عبد الرحيم حيث وجد مذياعا جديدا اشتراه من أحد المّحلات أثناء زيارته إلى مدينة بعيدة تقع في إحدى زوايا الصّحراء ، بمرور الوقت استحلى الجلوس إلى جانبه فأصبح لا يكف البتة عن فتحه وسماعه ، أصبح مدمن إذاعات بل إنه صار يحفظ أسماء العديد منها وأسماء برامجها و مواعيدها.

ذات ليلة كان يبحث في القنوات المتاحة ، فإذا به يعثر على برنامج يعنى بالشّعر وجمالياته -أرجوحة قلب – بإذاعة المملكة العربية السعودية، لقد جسّد الكثير من مشاعره، نعم حالات المشّاعر التي يمر بها وائل، كان توقيت ذاك البرنامج كلّ ليلة عند السّاعة التاسعة ليلا ، كان يتسمّر أمام المذياع لينصت ، وعند سماعه يشك أن الكلام الذي قيل ، موجه إليه ، كلام يعبر عن الحالات النّفسية التي يمر بها خاصة في أيامه تلك.

إنه يسمع بتمعن لكل حركة لكل سكنة لكل حرف وكلمة يسمع، والدموع لا تكاد تفارق خديه، لم يكن وائل يرتاح في يومه إلا عند وضوئه وذهابه إلى الصلاة في المسجد كل وقت من أوقاتها ، ثم سماعه للقرآن الكريم بصوت الشيخ علي جابر رحمه الله وعبد الله بصفر، ثم إلى الشّعر العفيف بصوت بندر الدوخي رحمه الله تعالى دون غيره.

حيث قال في إحدى الأمسيات الحالمة:

أتسلل في أغوار اللّيل أبحث عن ظلي الضائع....عن صور أحبابي ،عن شبابي الذي تاه مني في مفترق طرق .

وأخطر كالهمسة أرصد حركات الدمعة في عيني، أوغل في الذكرى، ابتعد عن التفكير بهمّي، إذا لاحت في الخاطر بسمة.

وأعد بصمت دقات قلبي أحصي تناهيد ليالي البّعد.

أرقب رفة أهدابك في النّجم الرّاحل بين ضفتين ، أصرخ في فرح إذ أبصر موانئك تقترب.

استرخي في وله على أعشاب الحب المتسامي، أنقش أحداث عمري على أعمدة اللّيل بدموع النّجوم، أهدهد القصائد التي أحببتها.

أنسى الآمي التي تصدمني كل ثانية، وأذكر أن معي مفتاح حديقة الحب مكتوب عليه الحرف الأول من اسمك.

وفي أمسية خالدة أخرى كان التعب بطلها إذ قال:

تعبت من السّفر إليك، حقائب وتأشيرات مرور، وسنوات انتظار.

تعبت يدا تقرع الجدران بحثا عن أبواب السّكينة.

لقد نضجت بعدك كل ثمار أحزاني لكنها لم تسقط.

ظلت معلقة في رماد الذكرى وحلم الآتي.

تتأرجح في غصن لا يموت ولا يخضر ولا تهزه الرّياح.

يعيش في اللاشيء ،وهو فراغ يهزم محاولة الوجود.

لتغدق عليه أمسية وردية العيون الشذرات التالية بصوت بندر:

النسائم تدغدغ الورود فتحلق ضحكات العبير، توشوش النّجوم بما سمعت، والنّخلة الشامخة في باحة البّيت تسبر جذورها كتل السّنين في أحشاء الأرض تلوح بأذرعها لكل نسمة مسافرة، وتتابع ظلّها المنساب على الجدران والأسطح تقص عليه أسرار النّهار المتراكم في عمودها الفقري .

وعندما يبتلعه الظلام تضم أجنحتها على الأعشاش التي اختارت أضلاعها وطنا، وتهدهد أنغام الطّيور التي أغرقها اللّيل بطوفان الصّمت.

المحارة حتى ولو تناثرت فوقها قطرات الشّمس .

ولمع تحتها بريق المرجان وغنت حولها الأعشاب البحرية لحن الألوان السّاحرة ، ما قيمتها ما لم تخبئ في رحمها لؤلؤة الغواص تتزاوج الشّمس والماء.

المهر عقد وهج ، ينجبان غيمة لا تكف عن الرّحيل والبكاء والتّمزق.

صوت ملئ بالشّجن، شجي يملأ الأفق حنانا متدفقا ، ليال كان يتسمّر فيها وائل لسماع كل هذا الكم من الحب والشجن والحنين الفيّاض ، ليال ساحرة أنارها ضوء القمر

الخافت وصوت بندر اللافت، الذي أضحى كالغيمة المثخنة بالماء تبحث عن قلوب ظمأى لتروي عذاباتها، لترتدي أوشحة الحب والهجر معا، وكأني بها تقول لوائل لا تيأس فالشّمس خلف الرّابية ترسل أشعتها لغد أنظر وأبهى، هكذا سمعها تقول.

أضحى الصيف في منتصفه أو ما يزيد عن ذلك، ووائل منشغل بمعاونة والده في المّحل تقريبا كل يوم، ذات مرة سافر لأيام معدودات مع بعض أصدقائه الذين لعبوا معه الكرة في نادي البّلدة منذ سنوات خلت، قضى أياما بين زرقة السّماء و زرقة البحر، علّه يشفى من بعض جراحه، وهو الذي ذهب مرغما ، بعد إصرار أصحابه ووالده كذلك، لكنه رجع بسرعة البرق كأنه لم يذهب قط يوما ، وعاد إلى عمله بالمتجر فهو لا يستطيع أن يذهب بعيدا و لزمن كبير، لم يكن يدري أن القدر يحمل بين ثناياه ليسوق له شيئا جميلا بديعا .

فبينما هو داخل المحل ذات مرة -يقوم بخدمة الزبائن- اذ به يبصر من بعيد فتاة تلبس الأحمر والأبيض والأسود، وهي ألوان درجت عواطف على ارتداءها ، أمعن وائل النظر، وقال في قرارة نفسه :

-ما هذا. إنه لباس عواطف، ويكأن بها ،هل هذه عواطف، لا اظن ذلك قطعا؟ ربما أهذي ؟ ربما كان يبرر لنفسه مرة أخرى لكي لا يذهب إليها، رغم شوقه الجارف لها ، اقتربت ودنت أكثر منه ومن المّحل ، خرج ليرى جيدا، مشكلة تلك التي تواجهه دائما فهو قصير النظر لا يميز الأشياء جيدا ،نظره الضعيف جعله يتأخر في التأكد

.نعم هي مشكلة يبدو أنه نساها في لحظة جنون وتخبط مشاعر، المحل لوحده و الوالد ليس بقربه ، وقد يغضب إذا جاء في لحظة ووجده موصدا، ووائل غير موجود به .

ترك الحانوت وهمّ بالرّكض نحوها، بعد أن تأكد منها، وبعد أن ابتعدت عنه مجددا بأمتار، في شارعهم الطّويل المتفرع إلى أزقة ضيقة عديدة . انطلق بعد أن تأكد مجددا أنها هي. وهو يقول:

-نعم هي ،عواطف هي، لم يكن مخطئا بحال من الأحوال ،كان يسابق الزمن،يسابقها هي ، يسابق الزّمان ،يسابق الأرض التي زادت جاذبيتها -إلى أكثر من المعتاد- تحت رجليه وتناقصت تحت رجليها . فأصبحت سريعة وهو بطئ،لم يعرف أين ذهبت ومن أين مرّت ؟ وهل أكملت الشّارع؟ أم انحرفت نحو إحدى الأزقة المتفرعة؟ وما أكثرها. قال في شجن:

- يا الهي ما هذا الذي يحدث معي ؟

رأى أن أفضل الحلول هو إكمال السّير نحو نهاية الشّارع الطويل، قد يكون ذلك أدعى لإيجادها.

نسى في لحظة وله أنه ترك المّحل لوحده ، ترك مبالغ من المال فيه، ترك سلعا ومستلزمات بثمن باهض ،ترك شيئا مقدسا بالنسبة لوالده، إنه يجري الآن وراء حلم حياته الذي ضاع منه مرّات عدة، يجري وراء حب آسر أسير لذيذ ، واصل السعي ووصل إلى نهاية الشّارع الطّويل، دون أن يصادف ضوء القناديل.

لم يكن- في حالته تلك - يهمه تأنيب والده له فهو أمر مفروغ منه ، لقد إعتاد عليه مرارا وتكرارا ، لقد كان كل همّه أن يصل إلى من أحبها قلبه وشُغف بها ، وبعدها كل شيء يهون، كل شيء يعوّض ،ولو عمل في منجم فحم مظلم تحت الأرض ،تحت ألف درجة مئوية أو تزيد.

لقد تأجل الحلم ، لم يصبح حقيقة مرّة أخرى، لم يجدها، بعد عناء وكفاح لم يجدها، بل لم يجد ريحها الذي لا يزال يعبّق في ذاكرته، رجع إلى حيث كان، إلى أدراجه ،و دمعة حمراء داكنة تنزل من عينه لم يستطع أن يكفكفها، وأخرى ينزف بها قلبه وجعا . يخاطب نفسه التي جلدها وسامها سوء العذاب غير ذي مرّة هو وغيره ،يقول :

-إنه القدر يا وائل، أنت من تعلّمت من " حافظ المعلم " أن الإيمان له ستة أركان، أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن ركين فيه، ما حدث لك قدر ومكتوب، فلا تبتئس ولا تيأس من روح الله فما منعك إلا ليعطيك وأن مع العسر يسرا، اصبر واصطبر وألقي حملك على الله تعالى فهو يعلم السّر و النّجوى،فربما هذا

مكتوبك وربما هناك بديل له أخر أجمل، جمّل نيتك بأفضل لباس .

أنت من تعلّمت أن الصّبر صبران، صبر على ما تحب وصبر على ما تكره، الغد سيكون أفضل بحول الله وبمعيته ،والغد لنّاظره قريب.

عاد وائل لمتجر أبيه، أين وجده في انتظاره على أحر من الجمر، حيث بادره بالسؤال:

-أين كنت يا وائل ؟

-لقد سرق أحدهم قلبي ؟

قالها في صوت خافت تملؤه الحسرة ، وكأنه يهذّي .

-ماذا تقول ؟

-قلت لك لقد سرق أحدهم شيئا؟

-عن أي شيء تتكلّم؟

تلخبط وائل فكذب عن والده وقال:

-بينما كنت داخل المّحل ، إذ همّ أحدهم برفع مذياعك؟

ولكن المذياع بالدّاخل ؟

-نعم . ولكن كنت أنظف ، فوضعته مؤقتا فوق الطّاولة ؟ استولى عليه السّارق فانبريت نحوه جريا ، لأستعيده منه ، قمت بعدها بوضعه على الطّاولة ، وشقيت طريقي للّحاق به بعد أن لاذ بالفرار .

-آه. ولكن أحد الجيران قال لي بأنك أطلت الإمعان في إحداهن، ثم انطلقت راكضا نحوها، أريد تفسيرا لكلامك وردّا على كلامه؟

-لا .لا .أبدا لم يحدث شيء من هذا إطلاقا. لقد أساء الظّن وتكلم بما لا يعلم ، وبما لم يكن.

-وائل جِد لك مكانا تذهب إليه اللّيلة لتنام فيه، يساورني شك بأنك لا تقول الحقيقة، أنا لم أصدق روايتك، وافرض جدلا أنني صدّقتها. هل كان عليك ترك المّحل والملايين التي فيه، وتذهب لاسترجاع مذياع؟

-ولكن المذياع محبب إليك، وهو كذلك بالنّسبة لي .

لقد كان وائل يتذكر أن هذا المذياع كان و لايزال متنفسا بالنسبة له. إنه يسمع منه برنامجه المحبب فظنّ في نفسه أن ذلك كفيل بصفح أبيه عنه.

عاد عبد الرحيم لتوبيخ وائل :

-قلت لك يا وائل إياك من أن تغفو عينك ولو رفّة عين عن المحل، هذا رزقنا جميعا وعليك أن تكون تاجرا حاذقا وحارسا أمينا عيْن الوقت ، أنت مطرود من المّحل حتى تثبت أهليتك وأحقيتك به.

سكت وائل ثم انصرف إلى المنزل وهو يفكر في ما حصل له من وجعين في لحظة واحدة . لقد تذكر ما عاناه في صغره ثم ما وجعه في كبره.

ثم إنه الآن لزام عليه أن يفكر أين يقضي ليلته هذه ، فكّر ثم فكّر وفكّر، فاهتدى إلى بيت أحد معارفه .

قضى وائل هناك مدّة وجيزة من الزمن لم تتعدّ الثلاثة أيام ، ثم عاد أدراجه وهو يحدث نفسه كالعادة ويمنيها على أن الوّضع تغيّر ولو نسبيا ، وجد والده كعادته في محلّه فاتجه نحوه ،بادر وائل والده بوجهه مفشيّا السّلام عليه ،وسائلا عن الصّحة و

الأخبار، لكن الوّالد لم يرّد ولو بحرف واحد ، كرّر سؤاله وتحيّته فلم يلتفت له والده قط ، هنالك عرف وائل أن حالة الغضب لا تزال جاثمة فوق قلب أبيه ، لايزال غضبانا اسفا مما حدث قبل يومين ، ولا تريد الحالة تلك أن تبرحه على الأقل في لحظته هاته.

سأل وائل مربيته عن الوضع العام حال غيابه فقالت له : -إن والدك متذمر جدا من تصرفك السيء وبأنه يشك في الرّواية التي قلتها له ،وبأنك كنت تجري وراء إحداهن ما اعتبره مؤشرا سيئا للغاية في سلوكك كشاب نشأ على الطّاعة والدّين والخلق، أنظر صغيري ،رغم تطميناتي وتفسيراتي له بأن ما تم إيصاله له كلام عارٍ تماما من الصّحة .

ربطت مربية وائل على قلبه بأن صدّقت كلامه ثم اتجهت بحديثها ناصحة له وهي تقول :

-كن حريصا بني في أي تصرّف تنزع إليه في حياتك فوالدك ليست لديه نوايا عدوانية تجاهك، إنه يريد فقط أن يوضّح لك كيف أن الحياة عصيبة و لا أمان فيها، وكيف أنه يجب الحذر من كل شيء وأنه عليك أن تصون رزقك بكل ضعفك و قوتك.

أصغى وائل إلى كلام أمه جيّدا ،فلم يرد بأي كلمة ثم شق طريقه وهو يحدّث نفسه بأن لا أحد يفهمه في هذه الحياة ولا أحد يصغي إليه فيرد له ردّا يريح قلبه ويوصله مراده، ولا أحد يعرف حجم ومقدار ألمه ووجعه إلا الله. فها هي مربيته كذلك لا

تفهمه ،هكذا تهيأ له بكل أسف ، بيد أن الحقيقة الكامنة أنها تفهمه ولكن لاتزال عقدة الرّهاب من الوالد قائمة فأنها بذلك تنزع نحو مسك العصا من وسطها.

بدأت التسجيلات الجامعية النّهائية ولم يكن يعلم وائل أين تم توجيه عواطف، انتظر بشغف أي أخبار ربما تصله عنها في لحظة من اللحظات، لقد كان عليه الانتظار إلى غاية إعلان انطلاق الموسم الجامعي الجديد علّه يجد ضالته المفقودة ،فالجامعات والكليات غاية في الكثرة عبر الوطن المترامي الأطراف ، إن المهمة إذن ليست بالسّهلة مطلقا، كانت لديه

بعض الحلول -على قلتها وضعف مردودها- ربما سيتخذها أو إحداها سبيلا للوصول إلى الهدف المرغوب.

أولى الخطط المرسومة في خاطر وائل أراد من خلالها أن يذهب إلى الحي الذي تسكن فيه عواطف ، لكن ذلك لم يكن سهلا فهو يخاف من ردة فعلها ، إن صادفته مرة هناك، ويفزع من ردود أفعال أهلها، وفعلا بدأ في تنفيذ خطته لكن أكبر إشكال صادفه هو وقوفه بشكل مستمّر كل مرّة في مكان ما ينظر في كل الأرجاء بالسّاعات الطّوال، وهو أمر شائن و مقزز بالنسبة إليه ، أمر لم يكن معتادا عليه فهو لا يهواه ولا يرغب فيه ، ولكن ماذا عليه أن يفعل إنها سلطة القلب وأمره الذي يجب الاذعان إليه وتنفيذه بالحرف الواحد.

لم يكن وائل يحس بالحرارة ولا بالصقيع حال وجوده هناك منتظرا ، يريد فعل المستحيل من أجل الوصول لمبتغاه، وإلى ذلك التقى ذات يوم -وبالصّدفة في إحدى

جامعات الجهة الشرقية- معلمه في الابتدائي وأستاذه في الطور الاعدادي " سي محمد " أستاذ اللّغة العربية، لقد نال شهادة الدكتوراه ثم الأستاذية، إنه بروفيسور جديد ، مدرّس و رئيس أحد المخابر العلمية، اندفع وائل نحو أستاذه معانقا إياه .

لقد سعد كثيرا " سي محمد " بالتقائه مجدّدا بتلميذه القديم ، لم يسأله عن المغزى من وراء وجوده سوى أنه دعاه إلى الإفطار معه ، تردد وائل في البداية، لكن أمام إلحاح معلمه القديم قبل الدعوة.

توجه الاثنان إلى أحد المطاعم القريبة من الجامعة لتناول وجبة الغداء ، وفي طريق الذّهاب كان وائل يكلّم نفسه كثيرا قبل أن يخرج بقرار، ولكثرة تردده وصلا إلى الطّاولة ولم يقرر بعد ، ماذا يقول حال سؤاله عن الدافع وراء وجوده هنا ، جلسا ولم يقرر بعد، عندها بادر" سي محمد" بسؤال وائل:

-كيف حالك يا وائل؟ وكيف حال والدك وأسرتك؟

-بخير والحمد لله كلنا بخير .

-إذن أنت تدرس بجامعة المدينة .

-لا، ليس كذلك أستاذ.

-اه ،ظننت أنك التحقت حديثا وبأنك قد نلت شهادةالبكالوريا ؟

-لا، ليس كذلك سيدي .

-اه ، ظننت أنك التحقت حديثا، وبأنك قد نلت البكالوريا ؟

-أبدا ، لم أنل الشهادة بعد، لقد رسبت العام المنصرم ،أنا هنا لغرض آخر غير الدّراسة ؟

-اعذرني بني ، ظننت بأنك نلت البكالوريا، لم أكن أعلم مطلقا، لقد التحقت بهذه الجامعة منذ مدة ليست بالطّويلة ، ويطيب لي دائما أن التقى بالأحبة، خاصة أنني أحس بالغربة هنا .

-لا شيء سيدي يدعوا للاعتذار، بالعكس يسعدني كثيرا أن أجد من يسأل عني ويتمنى لي الخير والنّجاح.

بدأ وائل يسترسل في الكلام مع معلمه السّابق ،إنه يحس في نفسه أنه أمام فرصة ملائمة بأن يشاركه أحد الأمر الذي في صدره ، لكن في الوقت ذاته هو خائف من أن يبوح " سي محمد " لوالده -وهو صديقه- بما دار بينهما من حوار.

وبعد طول تفكير، قرر وائل أخيرا أن يخبر أستاذه بما يختلج صدره من معاناة وبالدّاعي الذي يقف وراء ذلك .

تكلم الفتى وأنهى كلامه، صمت الأستاذ برهة زمن، لكنه بالنهاية لم يندهش مما سمّع من اعترافات صادرة عن تلميذه السّابق فانطلق هو الآخر يقصّ عليه تقريبا نفس القصّة الحزينة في بداياتها السّعيدة الجميلة في خواتيمها.

لقد أدرك وائل من كلام معلمه أن النّاس سواسية أمام الحب والإعجاب يحبون ،يعشقون، يتألمون، يقهرون..هذه هي سنة الله في كونه، فلا مناص من مثل هكذا مشاعر يمتلئ بها صدر الإنسان ويعج بها قلبه.

وفهم كذلك من نصائح أستاذة أنه عليه بالصّبر فهو مفتاح فرج كل كرب ، وأن عليه صنّاعة نفسه وتثبيت قلبه على الإيمان بالتضرّع إلى الله وطلب الممكن والمستحيل معا، ثم الانطلاق في الحياة لتحقيق جميع أمنياته أو على الأقل بعضها إن أراد أن يكون له مكان ضمن الأقوياء، فالحياة لا تنتظر والأعمار تمر مرّ السّحاب. والدنيا لا تؤخذ بالتّمني ولكن تؤخذ غِلابا.

افترق وائل وأستاذه على أمل اللّقاء مجددا، ليستمر في البحث عن نفسه الضّائعة، عن هويته التّائهة، في ظل هذا الزّحام الشّديد الذي أرهقه بدنا و روحا.

بكلمة طيّبة واحدة من أستاذه ،عاد إلى البيت راغبا مريدا لحياته أن تتغير إلى أفضل مما هي عليه.

لكن دوام الحال من المحال تلك الكلمات الرقيقات لم يكن لها طول المّدة في نفس وائل ،لم يكن لها أن تصمد ، كانت مثل الأقراص المهدّئة التي سرعان ما تذوب أمام طغيان الحمّى وحرارة الجسم الطافية، رجع وقد دخل بعدها في أزمة نفسيّة عميقة قطّعت كيّـــــــــانه إربا ،إربا. بدأ ينصرف عن الحياة ويمنحها ظهره في عزّ شبابه المتوهج، لم يعد يريد رؤية أحد كان ولا التّكلم مع أحد مهما كان، ربما الوحيد الذي لم يتغير في المعادلة هو ذهابه إلى المسجد لأداء الصّلاة مع الجماعة. كان هذا

الأمر يحدث معه بشق الأنفس . بقي هكذا على حاله سنّة أو تزيد. إلى أن سمع ذات مرّة من خلال أخته الصّغرى أن عواطف تدرس في جامعة ليست بالبّعيدة تخصص علم الأحياء ، لم يتركها تكمل كلامها حتى انطلق مسرعا لتقصي الحّكاية، سأل و سأل ، لكنه لم يجد لها أثرا يذكر.

سعى عبد الرحيم في كل الاتجاهات لإيجاد حل للحال الذي وصل إليه ولده فلذة كبده، وهو لا يعلم بالضّبط الأسباب التي أفضت به إلى هذا الانهيار النفسي البّليغ.

فمن الأطباء إلى الرّقاة دونما فائدة تذكر، مرّت رحلة العلاج وتناهى إلى تفكير عبد الرحيم حينها ، أنه يجب عليه أن يذهب رفقة العائلة إلى إحدى البّلدان المجاورة لقضاء بضع أيام بغيّة تغيير الجو وتهذيب الوضع النّفسي لولده المتوجع.

وفعلا بدأ في ترتيب إجراءات الرّحلة، بقيت العائلة هناك أسبوعا كاملا وعند العّودة أحس وائل بشعور نحو الرّاحة على قلّتها ، لم يقتنع عبد الرحيم كثيرا، فأراد أن يكثف العّلاج وأن يستغل فرصة التحّسن الطفيف تلك، فانطلق في البحث عن " حافظ " أول إنسان عرفه، قصّ عليه الحكاية كلها ، ولمّا سمعها الشّيخ تأثر كثيرا للحال الذي آل إليه الفتى، حينها عاهد عبد الرحيم بالمجيء إليهم ، بعد الانتهاء من بعض اشغاله والتزاماته، وفّى المعلم بالوّعد، حيث أنه لم تمر إلا خمسة أيام حتى قصد إلى بيت عبد الرحيم، وما إن وقعت عين وائل على معلمه حتى فرح كثيرا بوجوده معه.

كانت تبدو عليه علامات الرّاحة والبشر، أنصت " حافظ " إلى كل حركة وسكنة وكل جملة وكلمة يقولها له وائل، لم يكن الفتى يريد أن يخبئ على معلمه شيئا ، كان يريد

أن يفضفض كل ما في قلبه لأقرب النّاس إلى قلبه، أكثر من سعيه في سبيل الحصول على تحقيق هدفه على الأقل في هذه اللّحظات العصيبة.

لم يتكلم " الشيخ " كثيرا وردّ بعبارة بسيطة:

-اسمع بني، أوصيك بخمسة أشياء إن حرصت عليها وحققتها أعدك وأعاهدك بميثاق رجولة، إنني أنا من سيخطب لك عواطف، على أنني أريد منك الآن أن تحلف لي وتعاهدني بأنك ستسعى إلى تحقيق ما سأطلبه منك.

-أعدك سيدي، وأحلف بالله لك.

استرسل عمسيدي في سرد شروطه الخمسة قائلا:

عليك بالصلاة في المسجد وفي وقتها، إلا إذا تعذّر عليك ذلك. ثم عليك ببرّ والديك وبقراءة القرآن ثم بالنّجاح في بكالوريا العّام القادم ، وبأن لا تتنازل عن مشروعك في الزّواج بعواطف حال الالتقاء بها، إن كانت الظّروف العّامة و الخاصة تسمح بذلك.

سعد وائل بكلام معلمه قائلا:

-شروط سهلة إن شاء الله، سأعمل على تحقيقها .

منح " حافظ " وائل رقم هاتف منزله، طالبا منه مكالمته حال وجود شيء يستدعي ذلك ، أو إن كان يحتاجه في أية مسألة من مسائل الحياة، قاطعا عهدا له بأن يبقى ما دار من حوار بينهما طيّ الكتمان.

كان على وائل أن يقوم بتلك الشّروط ، وكان عليه أن يفعّل أول إجراء فيها، بأن يسجل للبّكالوريا في تخصصه الذي وجّه إليه أول مرّة عند انتقاله من الاعدادية إلى الثانوية، سجّل وبدأ في الدّراسة بكل قوة و عزيمة، كان عليه أن يضع دائما في حسبانه أنه قطع عهدا على نفسه وعلى أهله وعلى معلمه، بأن يكافح ويناضل ويبذل النّفس والنفيس في سبيل الحصول على أحد أهم أهداف حياته.

كان يعتبر النّجاح مفتاحا للوصول إليها . مرّ العام سريعا ودقّت ساعة الحسم ،تمّ توجيه وائل إلى أحد مراكز الامتحان مقابل للثانوية التي درس فيها مع عواطف، كان يمر عليها ذهابا وإيابا وفي خاطره شحنة إضافية وشعلة متقدة للظفر بالنجاح المأمول.

نجح وائل أخيرا، وافتك شهادة البّكالوريا برغم الدّاء والأعداء، لقد كان مرددّا دائما لما درسه في منهاج الأدب العربي في نصه المتعلق بإرادة الحياة لأبي القّاسم الشّابي والذي مطلعه:

إذا الشعـب يومـا أراد الحيـاة فلا بـد أن يستجيب القـــدر

ولا بـد للّيـل أن ينجلـي ولابـد للقيـد أن ينكســـر

ومن لم يعانقــه شــوق الحيــاة تبخــر فــي جوهــا واندثـــــــــر

كــذلك قالــت لــي الكائنــات وحدثنـــــــي روحهــا المستتــر

ودمدمت الرّيح بين الفجاج وفــوق الجبــال وتحــت الشجــر

إذا ما طمحت إلى غايـــــة ركبـت المُنى ونســـيت الحــذر

ومن لا يحب صعود الجّبــال يعش أبــد الدّهــر بيــن الحفـــر

فعجّت بقلبي دماء الشــــباب وضجّت بصــدري ريّــاح أخـــر

وأطرقت أصغي لقصف الرعود وعزف الرياح ووقــع المطـــر

وقالت لي الأرض لما سألت: يا أم هــل تكرهيـــــــن البشــر

أبارك في النّاس أهل الطموح ومن يستلــذ ركــوب الخطـــــر

كان يريد أن يسجّل في ذات الكليّة التي تدرس فيها عواطف لكنه لم يقتف لها أي أثر، فاضطر إلى التسجيل بأي جامعة وفي تخصص يريده. لقد كان يحبّذ التوجه إلى أحد الفروع ، إما التّاريخ أوالعلوم السياسية أوالأدب العربي، لكنه قرّر إجراء تغيير للجامعة و للتخصص معا نهاية المطاف، فحوّل نفسه إلى تخصص التاريخ في جامعة بلدته، كان حلما وفعلا فعل ، درس ولم تبرح عواطف خياله مرة ، تعرّف إلى

فتيات عديدات درس معهن في نفس الكليّة و الفوج لكن العلاقة لم تتعد علاقة زمالة وفى اقصى حالاتها، إعجاب ليس إلا.

في عامه الثّاني من الدّراسة علم وائل من خلال أحد الأصدقاء أن عواطف درست بجامعة زارها في وقت سابق ، وهي نفسها الجامعة التي تم توجيهه إليها أول مرة، سبحان الله يا لها من صدف غريبة ، لقد تمنى بأن يرجع الزّمن ولو بعام إلى الوراء لتصحيح الأوضاع والابقاء على توجيهه الأول. لكن هيهات، هيهات . فات الوقت ،وأضحى من الذكريات.

كانت الأحداث في سيرورتها بالنّسبة لعبد الرحيم ، حيث اتصل " سي الباجي " ذات يوم به عن طريق أحد الأصدقاء المشتركين ، مخاطبا و متوددا إياه بالحضور عنده في بيته. استغرب عبد الرحيم من دعوة صديقه و جاره القديم ، حيث أن هوّة كبيرة- يصعب تجسيرها -حدثت بينهما في فترة سابقة، فلا عبد الرحيم يذهب إلى الحي العتيق الذي كان يسكنه ، ولا الباجي كان يزور صديقه المقرب في منزله الجديد.

هبّ عبد الرحيم للذّهاب إلى صديقه القديم الحميم رغم كل شيء، وصل إلى حيث بيته، طرق ودخل، فإذا به يجد صديقه على فراش المرض فاندهش الزائر الصديق لهول ما رأى، لقد تغيرت ملامح صديق شبابه كثيرا ، فقلّت حركته وبهتت ملامحه، لم يكن يريد أن يتكلم كثيرا ، وهو في حقيقة الأمر لا يستطيع لمرضه الشّديد .

طلب الباجي من عبد الرحيم أن يفتح مظروفا فيه ورقة مكتوبة بخط اليّد ومبلغا من المال و ورقة أخرى عبارة عن وصيّة، لكنه في الوقت ذاته طلب منه عدم قراءة مضمون الورقتين إلا حال وصوله إلى بيته.

استلم عبد الرحيم المظروف وكله دهشة من كلام صديقه، وعلامات الحيرة تحبس كلماته، شحب وجهه وأصبح كزهرة تذوي، وخار صوته ولم يتكلم بكلمة سوى أنه طلب له الشّفاء ، ثم انصرف نحو منزله.

و ما إن وصل حتى اختلى بنفسه وبدأ في قراءة الورقة العجيبة وكان نصها :

-أخي و جاري الغالي على قلبي -عبد الرحيم- لم يكن بوسعي مغادرة هذا العالم من دون أن أصحّح أخطاء اقترفتها في حق أعز و أقرب النّاس إلى قلبي....وأنت فيه ما برحته رفّة عين ، أعتذر منك وقد أتيتك ذات ليلة شتوية ماطرة مثلجة منتصف اللّيل بغرض مرافقتك إلى إحدى البّلدات القريبة ،محتجا بوجود مشاغل عندي و ظروف قاهرة طارئة ، وفي حقيقة الأمر غادرت معك كي لا تشك في أمري، فمن سرق لك مستودعك تلك الليلة-التي أذكت فيّ روح الألم والندم لاحقا- لم يكن سوى صديق لي أغريته ببضع فرنكات فعرض نفسه للبيع بثمن بخس-دراهم معدودات -سامحني الله وإياه، لقد رسمنا خطة شريرة ووضعناها موضع النّفاذ آنذاك بكل قذارة وبدون رحمة ولا وازع أخلاقي ، مستغلين ظروفك الخاصة ، حيث استولى على بضاعة لك بتحريض وأمر مني، لم أكن لأستطيع معرفة القيمة النّقدية للمسروقات على وجه دقيق ، فاجتهدت بأن منحتك هذا المبلغ الرّمزي -كترضية -فإن كان أقل من القيمة

المسروقة فأرجوا الصّفح وهو الذي أطلبه في كل الأحوال ، وبالنّهاية أنا طوع مشيئتك أن تفعل بي ما تشاء).

أنهى عبد الرحيم قراءة الرّسالة ، لكنه لم يحصي المبلغ المرفق، قام لتوه بعدها قاصدا إلى بيت صديقه ، لكن قبل ذلك أرجع الدّراهم إلى المظروف دون ورقة الرّسالة، لقد كان يحدّث نفسه في الطّريق عن حال الدنيا ، حتى اغرورقت عيناه دمعا ، إن تصرفا نبيلا مثل الذي بدر من صديقه وجاره لينّم عن صفاء سريرة وأوبة بعد غفلة .

أشفق عبد الرحيم على جاره القديم و رفيق شبابه وهو يراه في هذه الحالة من تقدم المّرض الذي سرى عبر كل أنحاء جسده فأرداه هزيلا شاحبا ، وكذا من مظاهر الفاقة والحاجة التي أصبح عليها، وصل المقصد ثم دخل بعد أن استأذن أهل البيت ولكن.... لقد وجد رفيق دربه قد انتقل إلى الرّفيق الأعـلى ، لم يتمالك عبد الرحيم نفسه وهو يرى هذا المنظر الوجيع، لقد عزّ عليه فراق صاحبه ، و عز عليه أكثر بعد أن رأى منه هذا الصّنيع البديع، رجع منتكسا على عقبيه بعد أن أدى واجب العزاء بعيون منهمرة الدّمع لا تنضب.

مرّت الأيام الأولى ، والمشهد العام يخيم عليه الحزن من المصاب الجلل الذي ترك فراغا رهيبا في حياة عبد الرحيم ، وفي يومه الرّابع انتقل إلى بيت صديقه مرة أخرى - وهو الذي لم يرحل لا جسدا ولا روحا عن بيت صاحبه خلال كل هاته الفترة - حيث وجد أبناء المرحوم هناك، سلّمهم المبلغ قائلا :

-هذا دين في ذمتي لوالدكم رحمه الله تعالى ، وأنا أكرر اعتذاري عن طول مدة الوفاء به ، بيد أن أبناء المرحوم عارضوا وبشدة طلب صديق والدهم ، حيث رفضوا تسلّم المبلغ جملة وتفصيلا ، لكن وبعد شدّ وجذب تمكّن عبد الرحيم من تسليم المبلغ لأولاد صديقه بعد أن تمنّعوا بادئ الحديث وبكل قوة.

كان وائل منشغلا خلال هذه الفترة بالتّركيز على دراسته الجامعية حيث أنه لا يزال يتذكر ذلك العهد الذي قطعه على " حافظ " للمضي قدما نحو تحقيق أهدافه في الحياة والتي هي في حقيقة الأمر جزء من ميثاق الشرف المبرم في خضم حياته الجامعية، لم يكن وائل أعمى البّصر وإن أراد إعماء قلبه الذي كان في حقيقة الأمر متعلقا بعواطف متشبثا بها دون سواها .

ولأن الجامعة كانت لا تكاد تخلو من البّحوث و الاوراق البحثية التي لا تكاد تنتهي ، فلقد كان ذلك الأمر مصدر إزعاج لوائل، يقضّ مضجعه ، ربما لانشغال قلبه بأمور أخرى أو ربما لأن الجو السّائد خاصة النّفسي منه لا يحفز المرء على إنجاز كل ذلك الكّم الهائل من الفروض، فوائل سئم من كل الالتزامات والأوامر مهما كان نوعها لكثرتها ولوجودها في حياته منذ صباه.

لكنه في عامه الثّالث أصبح يعير اهتماما بالغا بكل بحث وفرض ، بل إنه صار مدمن مكتبات فلا يكاد وقت يذهب إلا وتجده في احداها .

لقد كانت احدى أستاذاته الجديدات هي الدّافع الرئيس في تحوله العميق هذا، ولكن إذا عرف السّبب بطل العجب ، لقد كانت تشبه إلى حد التطابق عواطف ، ما جعله يركن

إلى الاسراف في النّظر والحملقة إليها خلال الحّصص الأولى للأعمال الموجهة- رغم خجله المعروف به- أمر مثل ذلك سبّب لها إزعاجا غير أنها لم تبد أية ردة فعل إزاء الوضع.

كاد يجن في لحظات، كاد يجزم قاطعا بأنها هي مع أنه يعلم علم اليّقين بأنها أخرى ، والحالة التي يعيشها ماهي إلا عارض من أعراض الهذيان ، استجمع كل قوّته للذّهاب إليها والتكلم معها.... إنه لا يريد تضييع فرص أخرى ،أراد قبلها معرفة اسمها وكنيتها ، سأل بعض الطّلبة الزملاء علّه يجد ضالته المنشودة لكن دون جدوى، حتى جاءت لحظة مناداتها من طرف إحدى زميلاتها باسم رانيا ، ظنّ وائل أنه اسم مستعار فطلب من أحد زملائه الاطلاع على حقيقة الأمر ، فأبلغه بعد أن استوضح الحقيقة حيث وجد بأن اسمها الحقيقي هو عينه الذي سمعه. تملّك وائل صمت وذهول، وقال :

-فظيع الأمر إنها كنية أخرى ، لا علاقة إذن بين الاثنين.

لكن رغم هذا الذي جرى ، ظل وائل يضع قلبه ومخيلته بأن إنسانة قريبة من عواطف في شكلها و قدّها وكلامها ولباقتها ،قريبة منه، إنه يلتقيها مرتين في الأسبوع، وهو يريد أن يكون العدد أكبر، لما تمثله له من قيمة وما يتمثّل فيها من صفات وحركات وسكنات تلك الحاضرة الغائبة، الحاضرة في وجدانه، الغائبة عن عيونه.

أثارت الأستاذة إعجابه، وأثار هو انتباهها ، لم تكن لتترك الموسم الجامعي يمرّ هكذا دون أن تتقصّى بنفسها الأمر وتكشف النّقاب عن هذا السّر العميق الذي ترك طالبها

يطيل التمعن فيها، ويشارك في كل حصصها بشكل لافت حتى أنه في عديد الأحيان لا يتركها تتكلم محتكرا كل أدوات الصّمت ؟وكل الكلام ؟

لم يستطع وائل الافصاح عن مكنونات قلبه في بداية جلسته مع أستاذته ، لكن وبعد إصرار منها، ترجم صرير القلم إلى حديث و كلام، باح بكل ما كان بداخله، لكنه احتفظ لنفسه بأسرار ملكة قلبه، لم يعرّف بعواطف ولا بأي معلومة عنها- حفاظا عليها – لأنه يدرك جيدا أن التي يتكلم معها بالنهاية مجهولة الهوية بالنسبة له على الأقل ، ولا يعرف عنها سوى النّزر اليّسير .

لقد كان يوقّن أشد اليّقين أن الحفاظ على عواطف يجب ان ينطلق من الحّفاظ على كل خصوصياتها مهما كانت، ومهما خفّ أو ثقل وزن تلك الخصوصيات ، تبسّمت الأستاذة بعد أن أفرغ وائل كل ما في قلبه من كلام ، وعاهدته بأن الموضوع سيبقى سرا بينهما، وبأنها ستفعل كل ما تستطيع فعله بغية مساعدته في الوّصول إلى مراده، إن كانت لديه رغبة في ذلك.

لم يكن يعلم وائل مكان عواطف بالضّبط وإلا لما تأخر عنها ولو لرفة عين. لقد تخيّل في لحظة ،وفى كل اللّحظات أنها بعيدة عنه بملايين الأميال ، والحقيقة أنها كانت قريبة منه مسافة، بعيدة عنه جسدا، ملازمة له روحا .

يقينا ، لا يدري أنها درست تخصّص أدب عربي ،وتحصّلت حديثا على ليسانس ، ووائل في عامه الثالث في الجامعة ، لقد تعبت هي الأخرى في مشوراها الدّراسي، كانت في غدوّ و رواح إلى حيث جامعة الدّراسة البعيدة عن مقر سكن والديها

بمسافة، ولم تكن الظروف الأمنية في البّلد وقتها على ما يرام، إنها تشاهد بعينيها مشاهد مروّعة و موجعة، تسمع أخبارا مؤلمة دامية كل ما فتح سائق سيّارة الأجرة مذياعه، أصبحت الطريق بالنّسبة لها هاجسا مدوّيا وكابوسا مروّعا ، كانت الحواجز الأمنية الوّهمية تضرب بأطنابها في كل مكان، فكيف تحلو الطريق ، وكيف يحلو السّفر؟

ربما لا يوجد لديها خيارات في التّخصص، فجامعة بلدتها آنذاك كانت حديثة الميلاد، بتخصص واحد ليس إلا ، فكان ذلك دافعا كبيرا لأن تغادر مكرهة في وقت كان جيلها من المناطق العامرة الأخرى يختار ما يريد من بين عشرات التّخصصات، وكأنها أصناف و انواع حلويات يشتهي منها المرء ما لذّ وطاب.

وحتى التّخصص الذي اختارته لم يكن من اولوياتها ولا من أحلامها ولو في يوم واحد من حياتها ، كانت تريد دراسة علم الطّب او الصّيدلة ،وما حفزها لذلك أكثر دراستها للعلوم الطبيعية خلال مرحلتها الثّانوية ، والتي كانت بارعة فيها ، عطفا على الفيزياء والكيمياء، لكن حلمها آنذاك لم يتحقق لأنها لم تتحصل على معدل القبول المطلوب في تلك الكليّة وكذا الأمر بالنسبة لكلية الصيدلة.

إن دراستها للأدب العربي نابع من حبها لهذه المّادة والحقيقة أنه لم يكن توجيهها الأول مباشرا بل إنها حوّلت نفسها من تخصص علم الأحياء المشابه لتخصص الطّب لكن باختلاف في فرص العمل بعد التخرج.

لم تجد عواطف صعوبات في عامها الأول لكن مع بداية السّنة الثانية بدأت تطفو إشكالية أستاذ أحد المقاييس الذي بدأ يغازلها أمام زملائها ما أثار حفيظتها ،حيث أنها تحمّلت منه فعله عديد المّرات ، بل إنه كان دائم الانتظار لها مخرج الجامعة للتكلم معها وهو المشهور بكونه زير نساء ، وعلى علاقة بكثيرات، وأمام امتناعها لإقامة أي نوع من العلاقات معه ، سعى إلى بثّ أراجيف وقحة عنها بين زملائه ، و الكلام عنها بطريقة جارحة غير مباشرة في إحدى محاضراته حينما خرج عن النّص -أدبا و تدريسا - .

أثّر كلامه النابي في نفسيتها كثيرا لدرجة أصبحت معها تتغيّب عن المدرّجات ،لم تستطع فعل شيء، ولم تهتدي لحيلة سوى أنها قامت ذات مرة بإرسال بعض زميلاتها للتكلم معه وترجيه بالابتعاد عنها لأنها، ليست سلعة للتّبضع ، ولا من النّوع المعروض أمامه من بعض الفتيات الهاجرات لعفتهن وأخلاقهن.

رد كهذا جعل الاستاذ الحقير يستشيط غضبا، حيث منحها علامة واحد من عشرين في مقياسه ، كما أنه حاول تأليب بعضا من الأساتذة عديمي الضّمير و المسؤولية لأجل تحطيمها، لم يكن الموقف سهلا أمامها ولكنها حاولت أن تثبت وراء قيّمها وأخلاقها ومبادئها ، بأن لا تنحني أمام هذه العواصف الهوجاء التي أرادت كسر عفتها وقيمتها ،واجتثاثها من تحت الأرض عنفا.

لم يكن أمام عواطف من أحد - بعد الله - تستند إليه سوى أستاذة صاحبة كاريزما رهيبة ، صادحة بالحق أمام كل ظالم متعجرف متغطرس ،تدعى سامية ، اشتكت لها ذات

يوم في لحظة ضعف وقهر سوء تصرف أستاذها معها، لم تترك الأستاذة سامية عواطف لتكمل شكواها حتى قالت :

-أنا أعرف هذا الأستاذ الحقير عزّ المعرفة، وسوابقه العفنة يعرفها الجميع، ومسألتك قطرة أفاضت الكأس بما فيه، تأملي خيرا وسيكون القادم أفضل بإذن الله، ترجّت عواطف الأستاذة بأن لا تفعل فعلا متهورا، فهي إنسانة مسالمة هادئة لم تفعل شيئا كهذا في حياتها كلها .

ولأن الأستاذة سامية تعرضت لملاسنات من قبل مع هذا الدّكتور السمج ، والشّكوى جاءتها من طالبة مقهورة مغلوبة على أمرها، فإنها لم تستطع مقاومة كمية الوّجع والقّهر والغضب التي في صدرها، فاتجهت مباشرة صوبه واسمعته كلاما ربما لم يسمع مثله في حياته قط ، ثم إنها لم تكتف بذلك حيث أنها توجهت إلى رئيس الجامعة بشكوى موقعة منها ومن طرف بعض الأساتذة ، فحواها التسّلط والجور الذي يرتكبه صاحبنا بتبجح قلّ نظيره ضد طلبة أبرياء ، لاهمّ لهم سوى تحصيل العلم وأخذ الشّهادة ، حلمهم وحلم ذويهم المنشود .

وأمام هذا الخطب ، لم يكن أمام رئيس الجامعة إلا تفعيل المجرى القانوني وعقد المجلس التأديبي الذي فصل في القضية واتخذ قرار الفصل من الكلية بشكل نهائي ، ونقله بعد ذلك إلى كلية أخرى ، ولم تتوقف الدّكتورة عند هذا الحد فحسب ، بل إنها كتبت تظلما باسم عواطف تحت مسمى رد اعتبار للنّقطة التي منحها إياها الأستاذ

المعزول ، فكان لها ذلك أمام خجلها وخوفها من مثل هكذا تصرفات ربما تلحق الضرر بها في القابل .

لم تكن تلك الواقعة لتهز من معنويات عواطف في عمومها بل إنها أصرت على بلوغ المرام التي جاءت لأجلها مهما كانت المعيقات و المثبطات، ارتقت إلى عامها الرّابع وبدأت في تحضير مذكرتها الموضوعة تحت متطلبات شهادة التخرج رفقة إحدى زميلاتها وبإشراف دكتور مميّز.

ناقشت و تحصلت على درجة مشرف جدا ،وأذن لها بطبعها بتزكية من اللّجنة المشرفة ، كان حدثا مميزا لها بعد نجاح البّكالوريا، إنها تستعد بذلك لطرق باب الشّغل بيدها ،بجهدها ،بعرقها، بكل آمالها وعفويتها.

رجعت إلى بلدتها جذلة بالفوز المحقق، والشّهادة بيدها وهي كلها أمل و عزم في غد جميل، غد مشرق . كانت لديها رغبة جامحة في العمل وأخرى في حفظ كتاب الله عز وجل ، فبعد أن أخذت الدّراسة منها جزء من حياتها، ها هي اليوم تتفرغ ولو نسبيا للرسالة الأهم.

من النّقطة الصّفر بدأت عواطف رحلتها في حفظ القرآن العظيم ، وفي الوقت ذاته بدأت التّحضير لشهادة الماجستير و ولوج عالم ما بعد التّدرج الجامعين لم يكن الأمر يسيرا في الوهلة الأولى لصعوبة تنظيم الوّقت وكذا لبحثها عن عمل يتسق مع مؤهلها العلمي والأكاديمي، أرادت في بدايتها الأولى الحفظ والمذاكرة في البيت ، ولكن الأمر لم يجد نفعا فاتجهت صوب إحدى الجمعيات النّسوية التي تعنى بتحفيظ وتلقين و

شرح أصول الدّين ، فقد نصحتها بعض صديقاتها بذلك بعد تجاربهن المفيدة و الرائعة والتي أثمرت بنتائج طيبة، آخر الأمر.

في عامها الأول، حفظت عواطف العُشر الأخير من القرآن بقراءة سليمة جيّدة و تقدّمت لاجتياز مسابقة الماجستير في جامعات خمسة، نجحت بتوفيق الله في ثلاثة منها ، وفاضلت بينهن ، لم يكن بمقدورها أمام تسجيلها لدّراسة عامها النّظري بمدرجات الكليّة أن تبقى بنفس الحرص في الذّهاب للجمعية ، حيث بدأت في تحضير مذكرة التّخرج في البّداية ثم رجعت بالتدريج للقران حفظا وتفسيرا ، فما لبث العام الثاني أن انتهى حتى أتمت ما يناهز نصف مذكرتها، وعشر آخر من القرآن الكريم.

في عامها الثّالث ناقشت بامتياز مذكرتها وتحصّلت على درجة الشّرف الأولى، وزادت إلى رصيد حافظتها العُشر الثالث من القرآن الكريم، وبذا وصلت إلى نصفه حفظا وقراءة ، ولم يبق لها سوى النّصف الثاني منه، وهي عاقدة العزم ، رافعة سقف التّحدي من أجل إتمام هذا المشروع النبيل .

تقدّمت عواطف لإجراء مسابقة توظيف الأساتذة الجامعيين بأكثر من جامـعة، لم يحالفها الحـظّ في بداية المطـاف ،لكنها قررت عدم الفشل في مسعاها ، وتحقيق حلم ظلّ في قلبها يختمر ، فتقدمت مرة أخرى عامها الثّاني بعد التّخرج لتتوّج مجهوداتها بالعبور وافتكاك تأشيرة المرور ، إنه حلم آخر جميل يتحقق لهذه الرائعة علما ، خُلقا وخلْقا.

اتجهت بخطى ثابتة نحو مهمتها النّبيلة في تلقين العّلم لشباب الجامعة وإيصال الرّسالة الخالدة (علم-عمل). في مقابل هذا التميز البّاهر ، كان هناك أمل آخر يريد صيده، حفظ كتاب الله تعالى كله مهما كان الثمن ، ومواصلة الطّريق في سبيل ذلك ، ولو كلفها ذلك العمر كله.

في غضون ذلك تقدم لها رجل ثري معروف في المنطقة التي تدرِّس فيها ، تكلّم معها في المّوضوع ، مثمّنا كل ما تتميّز به من صفات تجعلها فارسة أحلام كل رجل ،سمعته وطلبت منه مهلة للتّفكير و للسؤال عنه، ولكنه استهجن تصرفها-وهو في حالة علو وخيلاء وتغطرس- بالقول:

-لم يكسر لي أحد طلبا واحدا من الطّلبات التّي أشير إليها فقط بأصبع واحد من أصابع يدي، فكيف لك أن تفعلين هذا معي ؟ أنا رجل ثري وأستطيع شراء ذمة أي إنسان النّاس بعلبة زبادي؟

لم تطل عواطف التّفكير في الموضوع، بل بالعكس لقد كان رده بمثابة السّم النّاقع الذي سرى في دمها، رده الشّنيــع، كان عاملا مسهلا لها في بلورة رأي سدّيد سريــع. قائلة :

-اسمع أيها المحترم ، ابحث لك عن إنسانة غيري تشبهك .

لقد رفضت العرض جملة وتفصيلا، استشاط الرّجل غضبا، تمتم بكلمات غير مفهومة ثم انصرف، لم ييأس بعد هذا الرّفض القاطع والإهانة التي تذوّقها بطعم

العلقم ، فقام بإرسال إحدى بناته والتي تدرس عند عواطف من أجل إقناعها بالقبول وخطب ودّها ،رغم كل الذي بدر من والدها.

زاد هذا الأمر من غضب عواطف فلم تكن تريد التّحدث أو التفكير مجددا في شخص يتسم بتلك الأخلاق ، بتلك السّماجة والنذالة و الغرور في التّصرف مع الأخرين، وما زاد الطّين بلّة، وجود بنّات له في مثل سنّها.

لقد كان يسبب لها هذا الشّخص الكثير من الإزعاج والشروخ في قلبها، إنه لا يريد الكفّ -بعد كل الذي جرى- عن ملاحقتها وإرسال النّاس لها لخطب ودّها بل التّوسل لها، لتغيير رأيها.

فكّرت عواطف مليّا في الموضوع وبدأت تُحكِّم عقلها وقلبها آن الحال، لقد قرّرت أن لا تظلم الرّجل وأن لا تبخسه شيئا ، فربما لم تعرف عنه كل شيء ، ما جعلها تستقصي أمره عند بعض زميلاتها من سكّان البّلدة . لم يمر وقت طويل حتى أتاها الخبر اليّقين ، لم يكن رأيا واحدا بل آراء متطابقة، من أكثر من مصدّر مطلّع، كان هذا الأمر محفّزا لها في اتخاذ قرارها النّهائي تجاه الموضوع .

لقد تناهى إلى سمعها، أن الرّجل عربيد ، يعاقر الخمرة بشكل ماجن للغاية ، و صاحب صفقات مشبوهة مبدّد ومختلس آكل لمال النّاس.

أرسلت مرة أخرى ابنته التي تدرس عندها، لإبلاغه بالقرار النّهائي، بيد أن المعتوه لم يُقرئها سلاما بعد ردّها الذي اعتبره قرعا لطبول حرب شعواء ضده ، لقد تأبط شرّا، صار يلاحقها في كل مكان ويضايقها بكلام نابّي، بعد أن كان حِبّي.

اقترحت زميلاتها في الجامعة عليها، عدم السّكوت على تلك المضايقات المتزايدة، وبأن تحرّر محضر إزعاج لدى الشّرطة وتركها تتكفل بالقضية ، إن شخصا مثل هذا حرّي بكل عاقل أن يوقفه عند حدّه، لئلا يستفحل كالسّرطان في الجسد فينخره نخرا ، بل إنه كفيل بنقل العدوى لغيره ، فلا بد من اجتثاثه والتّحرر بالتالي من كل مشكل يبعث الصُّداع في الرأس. ولأن عواطف إنسانة مسالمة لا تحب النزوع لفعل الشّر للناس، ولو كان من قبيل كف الأذى وإبعاد الضرر ،ولأنها كذلك امرأة غير متعوّدة على مثل هذه الأمور، فلقد رفضت الفكرة جملة وتفصيلا.

كان عليها السّير في طريق آخر أكثر أمانا، وأقل جهدا، كان عليها التحمّل والتّريث إلى غاية نهاية السّنة ومن ثمّ تغيير الجامعة كليّا، إن أتيحت لها الفرصة وقبول طلبها، وفعلا فعلت، فما إن شارفت السّنة على الانتهاء حتى بدأت في إجراءات الانتقال ، لم يكن الأمر سهلا البتّة لولا تدخل إحدى زميلاتها النافذات في الجامعة والتي سهّلت عليها تلك الاجراءات، بل وأذابت لها عديد المراحل والمعيقات.

انتقلت عواطف إلى جامعة أخرى بعيدة عن مقر سكناها مرغمة على ذلك، وذنبها الوّحيد أنها رفضت رجلا اجتمعت فيه كل العيوب و الشرور ، لقد كان بمقدورها الانتقام -ولو نسبيا - بأن تضع أصفارا لابنته، وتأليب الأساتذة الآخرين ضدها لكنها لم تفعل فالأثر باق، والإنسان ذاهب ،وهذه عقيدتها في الحياة.

لم تحتج عواطف لوقت طويل حتى تأقلمت مع الوّضع الجديد في جامعتها الجديدة، لقد كانت الأجواء و الظّروف حسنة للغاية .فانطلقت مجددا في ممارسة وظيفتها النبّيلة

بإيصال رسالة العّلم والأخلاق والدّين مجددا إلى كامل محيط العمل الذي تشتغل فيه . عوامل مثل هذه ،عطفا على أخرى أكاديمية ، بوأتها لأن تعتلي عمادة الكليّة سريعا ، حيث بدأت تشتغل على إشعاع روح العدالة بين موظفي وأساتذة كليتها، وتنشيط مختلف الفعاليات ذات الصّلة بالمجال العلمي و الأخلاقي.

مرّ الزّمن بسرعة ، وها هي تحتفل بإنجاز جديد، لقد حفظت كتاب الله تعالى عن ظهر قلب، و أصبحت تشرف على إحدى الجمعيات شرفيا ، بل إنها كانت تدرّس خلال عطلة الصّيف البنات الصغيرات ، و تلقنهنّ أصول الدّين ، وبالتالي الانصراف نحو مهمّة نبيلة ، لا تقل عن الرّسالة العظيمة التي تؤديها بالجامعة .

لم تكن تعلم عواطف أن يوما سيأتي لتكون فيه عميدة كليّة أحد أساتذتها كان مدرّسا لها في مرحلة الليسّانس ، ذلك الدّكتور الذي ما انفك حينها يضايقها بتصرفاته وبكلامه ،حيث أنه منحها ذات مرة علامة واحد من عشرين بهتانا و ظلما ، ولأنها كانت تعتبر الأمر ماضٍ من النّسيان، فلقد تحاشته كثيرا ، وهو كذلك -وعلى ما يبدو -لم يظل في مثل تصرفاته الأولى، صار يكمل ساعاته وينصرف دون أن يتكلم ولو بكلمة واحدة.

إنه الزّمن يمر سريعا، أنهى وائل دراسته الجامعية وأصبح يبحث له عن عمل مستقر، يؤسس له فتح بيت جديد على أن تكون ملكته عواطف الماكثة في قلبه دون تحرك ، لم يجد في البداية عملا قارّا، حيث اشتغل في بدايته الأولى في إحدى المؤسسات الاقتصادية داخل بلدته ، بعقد محدد الآجال، وهناك أثرى رصيده العملي. لينتقل بعد ذلك إلى العمل كأستاذ في نفس الثانوية الأولى التي درس بها ، إنه

حلم يتحقق ، واجه في بدايته بعض الصعوبات في التأقلم مع الجو الجديد للعمل ، كان سريع التّعب ، كثير الشعور بالنُّعاس خلال أيامه الأولى في الشُّغل الجديد ، يحبذ المكوث في الثانوية ،أحيانا حتى بعد انتهاء دوامه مستغلا ذلك في المطالعة داخل أسوار المكتبة العتيقة التي كان يستعير منها كتبا ، إبان فترة دراسته الماضية.

في مرّة من المّرات وبينما هو بمجلس الأساتذة بمعيتهم ، إذ به يبصر بعض من درّسوه عندما كان تلميذا في ذات الثّانوية ، إنه أمام فرصة تبدو نادرة للانتقام منهم، ومن أفاعيلهم الشيطانية التي ضاق ذرعا منها حينها .

في أحد مجالس الأقسام المنعقدة، للنّظر في النّتائج الفصلية للطلبة وللبت النّهائي في معدلاتهم المحصّل عليها ، وبحضور كمٍ هائل من الأساتذة، تناول وائل الكلمة شاكرا للتلاميذ مسعاهم ، ومثنيا على المجهودات الجبّارة التي بذلوها طِوال الفصل ، لينتقل بعدها إلى تأديب أشباه الأساتذة الذين كانوا يتحرشون بالبنات ،ويضخّمون مُعدلاتهن ويقدمن على فعل الممكن والمستحيل لإنجاحهن في الامتحانات . بتبجح وظلم وجور ، ويُسمعون الطّلبة المستضعفين مالا وصحة -هُم وذويهم - أقدح وأقبح الصّفات و الكلمات ، لقد كانت تلك التصرفات وتلك الكلمات كلّها يسمعها وكأنها الآن تحدث، فالظالم ينسى والمظلوم وربُّ الكعبة لا ينس ، كان يريد إدخالهم بيت الطّاعة، لكن بكلمات تعّج باللّباقة والاحترام وبالاستعارات اللّغوية البليغة . لم يكن بوسعه أن يقول كلاما نابيّا مسموما ، فهو يعلم أن كلماته موجّهة لأساتذة كانوا من قبل أساتذته، واليوم هم زملائه في المّهنة، لهذا الدّاعي انتقى كلماته بكل أدب واحترام، لكن ذلك لم يمنعه

من الصدح بكلمة الحق واعلائها عاليا خفاقة ، لقد طبق المقطع الأول في بيت شعري لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

الخير بالخير والبادئ أكرم والشّر بالشر والبادئ أظلم .

لم يكن لوائل أن يتلفظ بكلمة إلا لأنه ذاق مرارا مُرّ كلامهم، وتجرّع تكرارا سُمّ أفعالهم ، تجرّع جورهم وظلمهم الفاضح، سرقوا منه أجمل اللّحظات في شبابه .

و مهما تكلم وائل فإن بعضهم لا يحسّون لكلامه رِكزا، هم مدمنو فسّاد و جور، كان عليه في جميع حالاته إبلاغ رسالته ومن ثم الانصراف والنأي عن الخوض في أي كلام مع خشب مسنّدة.

في لحظة ما، سمع وائل صوتا يناديه:

-يا أستاذ وائل، يبدو أنك نمت كثيرا، قد يكون ذلك نتيجة تعب ووصب أصابك.

لم يكن هذا الصّوت سوى صوت المكتبي أحمد ،صديق وائل في الدّراسة أيام الثانوية ،و الذي عكف وائل على البّقاء عنده في فترات فراغه للقراءة والمطالعة .

قام وائل من مكانه وهو يبتسّم ملء ثغره، قائلا :

-سامحك الله يا أحمد ، كنت أتلذّذ بمنام اشتهيت أن أراك فيه .

ضحك أحمد من كلام صديقه ، وأردف يقول :

-اوه، لابد أن تحكي لي كل شيء، وإلا حرمتك من الوّلوج هنا مرّة أخرى .

قصّ وائل على صديقه ما يراه النّائم، وبالتّفصيل الممّل، ثم توّجه تلقاء النّافذة ، مبصرا نحو باحة الثانوية قائلا:

-ربما اشتهيت في خاطري مثل هذا الأمر لإحساسي الدفين بالظّلم الذي تعرضنا له من أولئك الأساتذة ، لكن صدقني ليست لدي أية نية في تصفية الحّساب مع كائن من كان ، ربما تجتاحني غصّة في حلقي من أفعالهم وأقوالهم ، لكن عفا الله عما سلف .

7. الطّائر المُهاجر.

كان على وائل التّوقف عن العمل في الثانوية و التّوجه إلى عمل أكثر مدخول وأقرب للطمأنينة، كان عليه تغيير الأجواء جملة واحدة ، لقد جاءه عرض عمل متفرد خارج الوطن في ليبيا على وجه التحديد، كان عليه الاسراع في تتّمة الاجراءات اللاّزمة للانتقال إلى هناك وعدم تفويت الفرصة ، أكمل إجراءات السّفر بسرعة خاطفة معلنا انتقاله إلى طرابلس ثم إلى مكان عمله الجديد.

عمل وائل في إحدى الشّركات النفطية الأجنبية العاملة في ليبيا . وكان له التّعرف هناك على كثير من الناس ومن جنسيات مختلفة، ومن بين العاملين هناك عاملة من جنسيّة إيطالية تدعى " مونيكا بوتشللي " ، لم يكن يفهم كلامها إلا عند تكلمها باللّغة الفرنسية التي تكسرها و لا تنطقها بشكل سليم.

عانى وائل كثيرا لدرجة ندمه على العمل هناك - في بداياته الأولى - أين وجد نفسه يعمل في درجة حرارة ملتهبة وتحت إمرة قيّادة أجنبية لا تعرف للرّحمة طريقا فكل همّها هو التّحصيل المالي - وليذهب البّاقي إلى الجحيم المستعّر - ، كذلك ساعات العمل القيّاسية حيث صار يعمل وائل اثنتا عشرة ساعة في اليوم دون راحة ، تحمّل الوضع الكارثي أمام عدم إيجاده فرصة عمل قار مرّسم في بلده . وكذلك أمام الضائقة المعنوية التي اعترته في الكثير من مراحل حياته بشكل متراكم و مؤلم.

برغم كل تلك المعطيات و الظّروف، إلا أن وائل أبلى البلاء الحسن في عمله لدرجة ارتقى فيها إلى رئيس فرع ، لكن مسؤولية كهذه لم تكن من السّهولة بمكان ، بالنّظر إلى المنافسة الشرسة بين العمال، وكذا لكميّة الوشاية والفساد الذي كان متفشٍ بشكل كبير.

كانت مونيكا بوتشللي امرأة غانيّة الجمال، بشكل لا يقاوم بحيث كان الجميع يخطب ودّها ويحب قربها ، إنهم يخلقون أية فرصة للكلام معها أو حتى النّظر إليها ، امرأة مثلها في مقتبل العمر، فهي لم تكمل السّابعة والعشرين من عمرها بعد.

متحصلة على دكتوراه في الكيمياء من جامعة ميلانو الإيطالية ، ذكية فطنة ، حسنة المعاملة ،عوامل كلها تؤهلها لأن تكون مثار انتباه جميع الرّجال ، حتى أولئك الذين بهم عمى.

لم يكن وائل ليشذّ عن الزّحام ، إنه رجل وله مشاعر وأحاسيس، يحسُّ بالوحدة والضّجر ، يشعر بأحلام تقترب منه ثم تبتعد ، كان يحدّث نفسه من أعماق نفسه عنها ، وعن عواطف وعن أحلام استحالت إلى أوهام، لم يستطع وائل بعد شدِ و مدِ ، أن يتخلى عن حلم لطالما كان أسيرا له قلبه، لطيف لطالما كان له حبه.

أنهى وائل عقده الأول المحدد بستة أشهر كاملة، ليعود إلى بلده في عطلة مدتها شهر واحد ، كان عليه أن يختار بين تجديد العقد أو إمضاء وثيقة المغادرة ، ما إن وصل إلى بلدته ثم إلى بيت والده حتى أخبره، بأن إحداهن قامت بالاتصال وطلبته منذ حوالي الشهر ونصف الشّهر ، استغرب وائل هذا الاتصال ، فكّر في هويّة المتصلة ،

بيد أنه لم يخطر بباله أحد قط، نعم تزاحمت في رأسه الكثير من الأسماء، حتى لو كان اتصالها يبدو في خانة المستحيلات السّبع.

سلّم عبد الرحيم قصاصة ورقية بها رقم هاتف المتّصل، دون اسمه أو هويته، تناول وائل القصاصة بسرعة للاتصال، كرّر الاتصال كم مرّة ولكن الخط كان مشغولا ، ما أفضى به إلى إعادة المحاولة مساء ، وكذلك فعل ، لكنه وجد الهّاتف هذه المرة مغلقا.

ظل وائل ليلته تلك يفكر في سؤال واحد :

-من هي المتّصلة ؟

راح فكره يمينا وشمالا، شرقا و غربا ، فهذه هي المرّة الأولى التي تتصل فيها إحداهن تطلبه، تريث إلى الصّبح ، فأعاد الاتصال مجددا ، شكّل الرّقم فإذا بالهاتف يرّن ، رفعت السّماعة إحداهن ، أقرأها وائل السّلام فردت:

-وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته.....من معي؟

-سيّدتي ،لقد اتصلت بي منذ زهاء شهر ونصف؟

- لطفا سيّدي، أنا لست مالكة الهاتف ، دقيقة وأحولك إلى الطبيبة؟

استغرب وائل كلام السيدة:

- طبيبة ،عن أي طبيبة تتكلم؟

ردّت مرّة أخرى ذات المرأة قائلة:

-عفوا سيدي، لقد خرجت الطبيبة للتّو، أعد الاتصال لاحقا.

رد وائل :

-ولكن لم أعرف من أنت؟

-أنا ممرضة لدى الطّبيبة ، ثم أغلقت الخط مباشرة ، تاركة وائل يدور في حلقة من أسئلته التي لم يجد لها جوابا.

رأى عبد الرحيم علامات الدّهشة على وجه ابنه، فبادره بالسّؤال قائلا:

-ماذا هناك بني ؟

-لا شيء أبي ؟

-اتصلت بصاحبة الرّقم؟

-نعم اتصلت، ولكن صاحبة الهاتف غير موجودة.

أعاد وائل في الأمسية الاتصال مجددا،علّه يصل إلى معرفة هوية صاحبة الرقم المجهول ، شكّل الرّقم فإذا بالممّرضة ترفع السّماعة مجددا ، فانبرى وائل لسؤالها :

-السلام عليكم، عمت مساء.

-وعليكم السّلام ورحمة الله، أهلا سيدي . بما أخدمك ؟

-أنا من اتصلت بك سابقا، هل الطبيبة موجودة سيّدتي ؟

ردّت الممّرضة، بصوت خافت :

-عفوا سيّدي، ربما أزعجتك صباحا الطّبيبة موجودة في مكتبها ، وسأحولها لك حالما تنتهي من فحص مريض عندها ، لم تبطئ الممّرضة في الرّد على وائل حيث حوّلت له الطبيبة بسرعة:

-من معي ؟

-عفوا سيّدتي، لقد اتصلت بي منذ ما يربو عن الشهر ونصف الشهر، كنت لحظتها غير متواجد في المنزل، والوالد هو من تكلم معك.

-عفوك ، ربما نسيت؟

صمتت قليلا، ثم أردفت تقول:

- اه، ألست وائل فاعوري؟

-نعم سيدتي، أنا هو.

-أنا" ليديا ".

- ليديا ، من ؟ لم أعرفك؟

-درستُ معك...

قاطعها وائل بسرعة :

-اه ،عفوا أهلا " ليديا " كيف حالك؟

-بخير، الحمد لله وأنت ؟

-لا بأس ، ولله الحمد.

-أريدك في موضوع مهم، إن كان لديك وقت يسمح بذلك ؟

-نعم تفضلي ،أنا في الاستماع.

-لا ، ليس كلام هاتف ، إن كنت متفرغا تعالى إلى عيادتي بالعاصمة وسأعطيك العنوان كاملا ؟

سجل وائل عنوان عيادة ليديا ، ضاربا لها موعدا بعد يومين، أغلق الهاتف و دخل في معترك آخر من الأسئلة المبعثرة، لكنه تأمّل خيرا من وراء ذلك .

حان موعد اللّقاء ، وانتقل وائل إلى العاصمة بحسب المّوعد المرسوم ،بحث عن العنوان فوجده بصعوبة ،ولما وصل إلى مقر العيادة ، طرق البّاب ثم دخل ، كان عليه الانتظار برهة من الزّمن لحين خروج أحد المرضى، وماهي إلا لحظة زمن حتى أذنت له الممّرضة بالدّخول ، دخل وائل إلى غرفة الطبيبة فبادرها بالسّلام و التحيّة:

-السّلام عليكم ، أهلا ليديا كيف حالك ؟

-وعليكم السّلام ، الحمد لله ، على سلامتك؟

-اه، لقد صرت طبيبة ما شاء الله ، أنا غضبان منك ؟

-لما ؟

-لم تخبريني بأنك صرت طبيبة من قبل ؟

-والله ظروف ومشاغل الحياة ؟

ابتسم وائل قائلا:

- لا لا، أنا أمزح معك فقط ، مبارك عليك الانجاز الجميل، إنه أمر مفرح حقا، ولكن شغلتِ تفكيري بمكالمتك تلك؟

-حقا، لقد اتصلت بك فقط لأخبرك بأمر ربما يهمّك .

- ما الخطب ؟

-إن أحدهم يعالج عندي منذ مدّة ،على شكل حصصٍ علاجية، يحمل نفس كنيّة عواطف ، لم أنسى أبدا بأنك في اتصالنا الأخير أخبرتني بحكايتك مع عواطف ، ومنذ ذلك الوّقت وأمرك في بالي، وأنا آسفة على تقصيري في مساعدتك.

-لا لا، أبدا لم يكن هنالك تقصير، أبدا، بالعكس تصرّفك هذا يثبت- بما لا يدع للشك و للرّيبة مجالا - أنني في البّال وأنك فعلت الواجب، بل أكثر.

-ما رأيك إذن بالتّكلم مع مريضي ، عن عواطف ، ربما وجدنا ضالتنا عنده ؟

-أنا أكلمه ،أم انت ؟

- بكل تأكيد، يتوقف الأمر عليك ؟

-حقا....لست أدري ؟ ربما أميل إلى أن تتكلمي معه أنت، في مطلّق الظروف والأحوال، أفضل عدم الظّهور .

-كما تحب، سأتكلم معه وأتقصى لك الأمر، ولكن لا أعدك بشيء. أنا ملزمة ببذّل عناية وليس بتحقيق نتيجة . أنا لا أجزم من يكون المّريض، فربما يكون أحد معارفها أو ربما أخوها أو ربما هناك احتمال بأن لا صلّة قرابة تجمع بينهما ؟

-على كل حال، لا أريد استباق الأحداث، ولكن علينا أن نجرّب .

ران الصّمت قليلا على ثغرها، ثم قالت:

-إن كانت لديك مشاغل هنا، فاستغل الفّرصّة لقضائها وفي نفس الوّقت انتظر الرّد. وإن لم يكن لديك شيء فاذهب إلى البيت، وأنا من سأتصل بك في هاتفك النّقال حال ظهور أي بوادر.

تبادل وائل وليديا رقمّي الهاتف ، ثم همّ بالانصراف.

بقى وائل في الانتظار ثلاثة أيام كاملة ، وفي أحد المّرات رنّ هاتفه الخلوي ، فإذا بليديا تتّصل به وتخبره بأن المّريض المعالج عندها ابن عم عواطف، وهو لا يعلم عنها شيئا لبُعد المسّافة بينهما، في ماعدا أخوها الذّي يتواصل معه كلّما كانت هناك مناسبة.

أخذت ليديا رقم هاتف أخ عواطف من عند مريضها ، ثم اتصلت به ، وسألته مباشرة عن وضعية عواطف الاجتماعية بعد أن ألقت عليه السّلام:

-كيف حال عواطف أخي ؟

ردّ أخو عواطف :

-وعليكم السّلام ، من فضلك ،من معي ؟

-أنا صديقتها، درست معها في المرحلة الثّانوية ؟

-تشرفنا أختي الكريمة ؟

- الشرف لي سيدي، شكرا لك.

- بخير والحمد لله ،هي تدرّس الآن بالجامعة؟

-إذن. هل هي مرتبطة ؟

-كلا، ليس بعد.

-في واقع الأمر، نريد أن نخطب لابن خالتي ..

مقاطعا :

-لا تتعبي نفسك، فعواطف نزعت فكرة الارتباط من رأسها نهائيا على الأقل في الوّقت الرّاهن ؟

-ولكن ،لماذا ؟

-هذه قناعتها سيدتي ، أرجوا أن يبحث في مكان آخر، فلا يضيع وقته هباء منثورا.

حاولت ليديا معه ولكنه تأسف لها ، أعادت الاتصال به مجددا بعد يوم لكنّه ظلّ متشبثا بكلامه. وأمام إصرار ليديا ، عاهدها بالتّكلم مع أخته مجدّدا حول الموضوع ربما

تبدّل رأيها بين عشيّة أو ضحاها ، هاتف الأخ أخته ولكن على ما يبدو أن دار لقمان لاتزال على حالها.

أبلغت ليديا زميلها السّابق بكل ما حصل من حوار مبديّة له أسفها العارم ناصّحة إياه بأن ينطلّق في بناء حياته ومستقبله ،وينسى أو على الأقل يتناسى المّاضي.

لكنّ وائل ألحّ عليها أن تستوضح بعض المعلومات عن عواطف- أين تسكن، أين تدرس - وهلمّ جر. غير أن ليديا أبدت أسفها لعدم استطاعتها الحصول على ما يريد و السّبب امتناع أخ عواطف عن الادلاء ولو بمعلومة بسيطة عن أخته .

ترجى وائل ليديا بأن تمنحه رقم أخ عواطف، تمنّعت في البداية لكنها و أمام إلحاحه الشّديد، منحته إياه ما جعل وائل يسترسل في بث الطمأنينة في نفس زميلته ، مؤكدا لها بأن تصرفه ليس نابعا من تكذبيه لها، بل لإرادته و رغبته الجامحة في إجراء محاولة أخرى ، أخيرة.

اتصل وائل، لكن أخ عواطف قاطعه في منتصّف كلامه قائلا :

-لقد قلت لقريبتك كل شيء، أشكر اهتمامك الكبير بعائلتنا، ولكن أنا آسف فعلا سيدي.

كانت إجابة مثل هذه، صدمة لوائل الذّي دُقّ في نعش أماله المّسمار الأخير. سارت العّطلة كئيبة ثقيلة على فؤاده الكليم ، أكمل ما تبّقى منها متأمّلا متألّما، ثم عقد العّزم على تجديد عقده في ليبيا مع الشّركة الأجنبية .

طار إلى هناك بعد نفاد الرّمق الأخير من إجازتـــــــه، و بمجرّد وصوله اتصل بالإدارة مبلغا إياها عزمه تمديد العقد. كان له ذلك بعد مفاوضات مضنيّة، على خلفية تعمّد الإدارة نحو رسم منهجية وخطّة عمل جديدة كان أولها تقليص عدد العُمال بسبب بدء تدّهور الأوضاع في هذا البّلد .

اشتغل وائل زهّاء الشّهرين ، وأمام تصاعد التردّي في الأوضاع الأمنية قرّر الرّجوع إلى بلده.

لكن في ما يبدو أن مونيكا بوتشللي اقترحت عليه الذّهاب معها إلى إيطاليا ، حيث هناك فرص عمل تتناسب مع مؤهله الأكاديمي ، فكّر وائل مليّا في العرض وتريّث بغرض دراسته، ثم قبله آخر المطاف ، بعد أن تذكّر الواقع الوجيع الذي تركه في بلده ، هو يتأرجح بكل تأكيد بين أوضاع نفسيّة موجعة ببلده ، وأوضاع أمنية منتكسة خارجها ، ولا يعلم يقينا إلى أين مسيره ، وما هو الأصلح له بالنّهاية.

استعجل وائل في إتمام إجراءات السّفر المعقّدة، بغية تسريع وتيرة الانتقال إلى إيطاليا حيث العمل الجديد . كان على وائل الاستعانة دائما بمونيكا ترجمانه هناك في بلد لا يتكلم إلا الّلغة الإيطالية .

نزل وائل في إيطاليا التي كانت تعيش حالة استنفار قصوى بسبب فيروس بدأ في الانتشار ، جعل الإيطاليين أنفسهم يفرّون من البلد برّا وبحرا وجوّا نحو وجهات مختلفة ، وهو أمر لم يكن يدري به وائل بادئ الأمر.

استقبلت مونيكا وائل عند وصوله مطار روما الدّولي، حيث اقترحت عليه النّزول في أحد فنادق العاصمة للعشّاء والمبيت، قبل الالتقاء مجددا بها في الغد.

قام وائل بالانتقال فعلا إلى الفندق حيث بات ليلته هناك وكله أمل في أن يكون العمل المأمول جيدا، صلى الصّبح مع جماعة من المُسلمين في مصلّى بالقرب من الإقامة. ثم عاد لتناول وجبة الإفطارالخفيفة وتوّجه للاتصال بمونيكا بغية الذّهاب بمعيّتها إلى الإدارة الجديدة ، وماهي إلا ساعة سير حتى وصلا إلى المكان المنشود .

استقبل مدير المؤسسة ماسيمليانو فيراتّي، وائل بكثير من الحفاوة، لقد ذُهل الضيف لمّا علم أن المدير يعرف اللّغة العربية بل ويتكلم بها بشكل حسن ، ابتهج وائل لما سمع ثم همّ بتقديم نفسه، غير أن المدير قاطعه بعد ان دعاه للجلوس في أريكة تظهر عليها علامات الجّدة والثراء :

-إن مونيكا تكلّمت عنك كثيرا، وهي معجبة بشخصيتك في العمل وبأدائك البّاهر، وقيادتك السلسة للفرع الذي كنت تشرف عليه.

ردّ عليه وائل :

-هل اعتبر هذا مديحا منك سيدي ؟

-لا بل هي الحقيقة .

-إن مونيكا معجبة كذلك بك ؟

نظر وائل إلى محدثه وتبّلد في الرّد مفكرا، وضربت غشاوة عينه لحظات، حتى انقشعت سحابة التأمل من على عقله وحاول الرّد على كلام مستضيفه بكل تلّطف:

-لم أكن أعرف سيدي بأن لديّ كل هذه المواهب ؟

صمت برهة زمن مجددا ، مستغربا في لحظة استغراق، كيف وصل إلى هنا، وكيف انطلق لسانه هكذا، وكيف...؟ كيف له وهو الانسان الذي عاش العذاب والاضطهاد في صغره، و لم يكن يجرأ على الكلام مع نفسه ،أن يصبح في إيطاليا برفقة مونيكا ؟

ماذا لو يلتقي الآن بعواطف في لحظة مجنونة ؟ سيدخل لا ريب تحت ملابسه خجلا ؟ إنها والله لحالة من التّلاطم و الّتناقض في أعظم صورها.

- علم وائل من ماسيمليانو أن المؤسسة مختصه ببيع الملابس المصنوعة في الصّين ، حيث هناك عقد بينها وبين مجموعة من المصانع في بيكين ، وكل ما هو مطلوب منه هو رئاسة فرع المبيعات ،وهذا بالاستعانة بترجمان يعرف العربية و الإيطالية والفرنسية و الإنجليزية .

لم يكن وائل متحمسا جدا للفكرة في البداية لكنه رأى فيها فرصة قد يقتنص بها فرص أخرى، فالعيش في مجتمع متحضر ديناميكي مثل النّحلة أمر مثير للحماسة.

كان الشغل رائعا وهي حقيقة وقف عندها فالأمور منظمة والمحل رائع ونظيف و ممتلئ بالسّلع وبالزّبائن على حد سواء.

انغمس وائل بسرعة البّرق في عمله، لقد كان العّمال رائعون بما فيهم الذين يعملون تحت إمرته.

عرضت مونيكا ذات مرّة على وائل الغداء معها في إحدى الإجازات الأسبوعية ، وقد قبل وائل العرض بخجل ، وصل وائل بحسب المّوعد إلى مطعم جوانا ديل باراخو، وجلس ينتظرها حتى وصلت المكان ،معتذرة عن تأخرها عن الموعد قائلة :

-أنا جد آسفة، جعلتك تنتظر وقتا طويلا في ما يبدو ؟

ردّ وائل :

-لا عليك كنت أستمتع بهدوء المّكان المرتب الجميل ، وصوت الوادي الجاري قبالتنا ، وصوت البّبغاء الظريف الذي على باب المطعم .

انطلقت مونيكا تسأل :

-ما رأيك في ظروف وأجواء العمل الجديد ؟

-كل شيء على ما يرام. ولكنني بحاجة أكثر إلى الانغماس في العمل وفهمه أكثر، أريد تعلم اللّغة الإيطالية التي لطالما استهوتني منذ نعومة أظفاري، فرغم أنني هنا منذ مدّة بسيطة إلا أنني تعلمت بعض الكّلمات منها ،وخاصة تلك التي تشبه اللّغة الفرنسية ،مع بعض التغييرات اللّحنية في نهاية كلماتها ، كذلك أريد استغلال فرصة تواجدي في إيطاليا لأجل ذلك.

عرضت مونيكا بوتشللي على وائل المكوث الدائم في روما، وتسجيل نفسه في جامعتها من أجل الحصول على شهادة الدكتوراه، وقالت بأنها ستفعل كل ما في وسعها للبّحث له عن مؤطر لأطروحته ، فهي تعرف بعض البروفسورات الذين لهم مستويات راقية علما وأخلاقا .

تردد وائل في بداية العرض، لكنّه وعدها بالمضيّ قدما فيه، حينها كان يحدث نفسه بأن فرصة مثل هذه حرّي به أن يستغلها بنجاعة فهو يريد أن يعمل و يواصل دراساته العليا آن الوقت.

بدأ وائل بالفعل إجراءات التّسجيل، بعد أن أرسلت له من طرف والده جميع الوثائق التي طلبها، لم تكن الخطوات الخاصة بقيدِه صعبة ، لقد وجد جميع التّسهيلات، ثم إنه تأكد من أن مونيكا كانت له بالفعل سندا في العملية بعد الله ،منفذة للوعود التي قطعتها له آنفا.

تم تكليف وائل بعد برهة زمن بالتنقل إلى نابولي عاصمة الجنوب الإيطالي ، بغرض جرد ومراقبة السّلع التي تصل المؤسسة عن طريق أحد الوّسطاء المعروفين بالمدينة ، إن عملية مثل هذه لم تكن أبدا بتلك السّهولة، ذلك أن العادة جرت بأن مثل هؤلاء الوّسطاء والسماسرة يجيدون المراوغة والمباغتة ، فالعمليات التّجارية بالنسبة إليهم مسألة حياة أو موت، إنهم يرون في كل عملية مدخولا إضافيا يجب جنيه مهما حصل وبكل الطّرق القانونية والمنحرفة دون تمييز .

ولأن الأمور لم تكن بتلك السّهولة التي كان يعتقدها وائل ، فلقد طلب مساعدين له يسافران ويتفاوضان معه، فكان له ذلك، لقد قيّض له ماسيمليانو كلا من " فرانكا " و "أليساندرو " لمعرفتهما نابولي ولخبرتهما في المّجال .

لقد كان السّمسار الذي يدعى " أنطونيو" معروفا بسوء أخلاقه وتصرفاته خاصة مع العّرب، ولمّا علم أن وائل ينحدر من أصول عربية، أصبح ينظر إليه بعين الاحتقار والازدراء وكأنه يعمل لحسابه .

كان أليساندرو و فرانكا في حقيقة الحال يخدمان مصالح أنطونيو أكثر من خدمتها مصلحة مؤسستهما ، لدرجة عملا فيها على قولبة عملية إنزال السّلع واختيار الأردأ منها ، فمعروف عن أنطونيو أنه يقسّم بضاعته إلى قسمين :أحدهما بمعيار و جودة عالمية و بثمن مرتفع والآخر بجودة أقل و بثمن معقول، إنّ المساعدين العميلين يقبضان رشوة منه مقابل التستّر على أمور مثل هاته مقابل هدية أخرى إضافية - رحلات مجانية - نحو البّلدان المجاورة خاصة البّلقان.

أمر مثل هذا أصبح يصيب وائل بكثير من الإحراج والإحباط أمام مستخدمه الذي أضحى يؤنبه تأنيبا قاسيا مشدّدا على التّبصر أكثر ، فسمعة المّحل لا تسمح بمثل هذه الأمور .

لم يستطيع وائل مواصلة العمل في مثل هكذا ظروف، فهرع إلى مستخدمه يطلب إعفاءه من هذه المُهمة الانتحارية . بيد أن ماسيمليانو طلب منه هو الآخر التريث ومنحه الوّقت لحين إيجاد بديل عنه.

إلى ذلك لاحظ وائل في أحد عمليات إنزال وتسليم السّلع،أثار غبار أبيض فوق بعضها، لكنه صرف النظر عن ما رأته عينه وواصل عمله باهتمام ،ثم مضى إلى وضعها رفقة معاونيه في الأماكن المخصصة لها . لكن وفي مرّة لاحقة رأى المشهد ذاته يتكرر، لكنه رغم ذلك لم يعرْ المسألة أي اهتمام من جديد.

اقترحت مونيكا بوتشللي عليه في إحدى الأمسيات الباردة أن يتناول معها العشاء مع بعض ، فاستأذن منها بحجّة الارهاق والتّعب وربما الخّجل أو الخوف ، لكن وأمام إصرارها لبّى الدّعوة على إرغام.

التقيا على طاولة واحدة ، تناولت كأسا من النّبيذ الفرنسي بصبّ كأس منه لها ، بينما تمنع وائل عن فعل ذلك-وقد سكبت له كأسا- معتذرا بحجة إسلامه الذي يمنعه من فعل هذا الأمر المشين و أمام هذا الوّضع لم يكن منها سوى طلب النادل بأن يأخذ الكأس المملوء مع القارورة احتراما لمشاعر وائل ودينه، لم يتناول وائل سوى بضع لقيمات من الطّعام بل إن يده لم تكد تمتد إلى أكل، ولمّا فرغت هي من نهمها، طلب منها أن تخبره عن الأمر الذي دعته من أجله .

اقترحت عليه الزّواج منها و الاستقرار معها في ايطاليا، اندهش وانكمش وائل من المُقترح بشّدة طالبا منها إعادة الطّلب حتى يسمعه منها مجددا ، كرّرت مونيكا رغبتها في الزّواج منه .

صمت وائل لحظة زمن ، وهو يتأمل في الطّاولة المربعة التي تفصل بينهما ثم ردّ عليها، بصوت ملؤه الخجل :

-أنتِ فتاة جميلة ولكن ؟

-ولكن، ماذا ؟

-دعيني أكون صريحا معك، أنت فتاة مسيحيّة الديانة والمبادئ ،محبّة للسّفر والتّجوال ، تعيشين في مسالك الحرّية المطلقة حيث لا وازع ولا حدّ ولا شرط ولا قيد ، وأنا رجل شرقي، ودِيني الذي أعتنقه وأخلاقي التي تربيت عليها وأعرافي التي نشئت فيها ، تمانع وتتعارض مع ذلك. أنا و أنت خطان متوازيان يستحيل بهما أن يلتقيا .

-ولكن الإسلام لا يمانع زواج المُسلم بغير المُسلمة.

-اعلم ، ولكن الاولوية بالنسبة للرجل المسلم هو أن يرتبط بمسلمة ، كما أنني أريد إخبارك بأنني مغرم بفتاة درست معي وأنا في رحلة مضنية للبّحث عنها.

-ولكنها رفضت مقترح الزّواج منك حسب رواية أخاها ؟

قام وائل من الكرسي غاضبا :

-كيف عرفت ذلك ؟

-أنت من أخبرتني بذلك، أنسيت ؟

ظلّ وائل يتذّكر، لكنه لم يستحضّر شيئا من ذلك ؟

صمت برهة زمن، ثم طلب منها الاستئذان بحجة عمله باكرا، انصرف و ما هو إلا يوم واحد حتى طلبتْ لقاءه مجددا لكنه اعتذر بشّدة ، وأمام إلحاحها بضرورة رؤيته امتثل لرغبتها ولكن طلب منها أن يكون اللّقاء في مقر عمله.

وصلت مونيكا المقر للقاء وائل حاملة كتاب القران الكريم وخمار على رأسها، دخلت عليه وهي في حالتها تلك ، لم تتركه يتكلم حتى انطلقت تردّد الشّهادة أمامه ،وأمام قوة المشهد، استقر الاستغراب في قلب وائل من مُهم ما رأت عينه ، لم تتركه يتكلم ، عارضة عليه الزّواج بها مرة أخرى.

طلب منها الانصراف وعاهدها بالتّفكير جيدا في الموضوع ،قبل منحها رأيه النّهائي خلال أسبوع أو عشرة أيام على أكثر تقدير ، وافقت مونيكا على طلب مهلته ثم قامت من مكانها مبلغة إياه بأنها على انتظار ،وبأنها في حال قبوله بعرضها ، ستبذل غاية جهدها في إرضائه .

واصل وائل شغله إلى نهاية دوامه، ثم عاد منهكا إلى حيث يقيم توضأ ثم صلّ صلاة العشاء واتبعها بصلاة الاستخارة، و خلد إلى النّوم مباشرة، لكن تلك الراغبة الجامحة في الغفوة اصطدمت بأرق عنيف ، فلم يستطع النّوم رغم تعبه، تناهى له أنّ عليه قراءة بعض سور أو آيات من القرآن الكريم، وترتيب الغرفة عله يستطيع النّوم بسرعة وبعمق .

في اللّيلة الثالثة، رجع وائل إلى محل إقامته وأنفاسه تكاد تنقطع من شدة التّعب والوصب ، لقد عاد لِتوه من نابولي تعشّى وصلّ صلاة العّشاء و تفقّد هاتفه المحمول

وبعض وثائقه فلم يجدها، تجاسر على نفسه وعاد إلى مقر المؤسسة التي يعمل بها ، اقترب وعندما أصبح على مرمى حجر إذ به يسمع حركات مريبة و غريبة، ما جعله يختبئ وراء أحد البنايات المحفوفة بأشجار كثيفة ، وبدأ يراقب الوّضع عن كثب، رأى ماسيمليانو يبدو عليه الغضب وهو يتكلم مع اليساندور و فرانكا بعصبيّةٍ زائدة وغير مألوفة ، ولكنه لم يستطيع فهم الحوار الدائر بينهم .

إنهم يتكلمون بلغة غريبة ليست إيطالية على الأقل، فهو يفهم كثير من كلماتها ومفرداتها، انغمس وائل أكثر مع كل حركة وسكنة ، مع كل شاردة وواردة ،علّه يرسى على فهم الذّي يدور ،أو على أقل تقدير بعضا منه .

توجهت الجماعة إلى الدّاخل، حيث لم تمر سوى لحظات حتى وصل أنطونيو المكان، بيد انّ المفاجأة المدوّية هي نزول" مونيكا "من سيّارة فارهة يقودها أحد الرّجال، تقدما بمسافة بعيدة عن البّناية الخاصة بالمؤسسة وعن السيّارة التي نزلا منها ، وانطلقا في التّحدث، لم يستطيع وائل سماع الحّوار الدائر بشكل جليّ ،فأراد التقدم بحذر، لقد كانا يتكلمان باللّغة الإيطالية مع كلمات من الفرنسية الهجينة .

استرق وائل بعض العبارات جعلته يسقط أرضا من هول ما سمع، لقد فهم لتوّه أنه أمام عصابة مجرمة، تتاجر بالأسلحة المحظورة وبالإتجار بالبّشر وتهريب اللاجئين السّوريين نحو مناطق مختلفة في أوربا ، تجمّد وائل في مكانه وماهي إلا لحظة حتى أشهر أنطونيو سلاحه من جيبه وهو يقول لمونيكا : -سنتزوج بعد أن أصفي عدوّي الذي خانني.

لكن مونيكا على ما يبدو تترجّاه للعدول عن رأيه إلى حين اتضاح الرؤية حول مصير السّلاح داخل الأقبية أسفل المحل، انهار وائل مرّة أخرى من عظيم شأن ما يسمع .

لم يكن الحّوار الذي دار بينهما وديّا في مجمله، إنه يهدّدها هي الأخرى بعد تأخرها عن الالتزام بعملها بقوله:

- ماذا فعلتِ في ليبيا، لا شيء بكل الأحوال، تبّا لكم جميعا.

انصرف نحو السّيارة وتبعته تجري و تترجاه بأن كل شيء سيكون على ما يرام، امتطت مونيكا سيّارته في لحظة صاخبة وهمّا بالانصراف .

لم يستطع وائل فعل شيء أو ترك شيء إزاء ما سمع، حتى أنه نسي الأمر الذي جاء به إلى هذا المكان، استكان في ضعف لقوّة اللّحظة ،ثم انصرف بعد لحظة لاوعي، وصل محل إقامته منهكا ومغشيّا عليه، ظل طِوال اللّيل يفكّر في جلل ما صادفه في هذه اللّيلة، ماذا عليه أن يفعل؟ سؤال عظيم أرّقه وقض مضجعه إلى أن سمع نداء الله أكبر. إنه أوان صلاة الصّبح.

لقد فهم وائل بعد كل هذا الوّقت أنه يعمل مع عصابة إجرامية خطيرة ،ثم إنه أيقن بأنه لولا عناية الله تعالى به لكن من الهالكين، صفع نفسه بيد من حديد، لتساهله و نيته الزّائدة و تقديره الأرعن للأشياء.

أخيرا، عرف لماذا كل هذا الحُب الزّائف و الرّغبة الجامحة من مونيكا- التي قُيّضت له من مجرمين منحرفين محترفين- في الزّواج منه ، لماذا كل ذلك الكّم من الاهتمام

به في ليبيا وصولا إلى إيطاليا، عرف لماذا كل هذا الحنان الفيّاض من ماسيمليانو عندما وضعه في ظرف قياسي رفقة بعض العرب المسلمين العاملين في المجال، في أماكن مرموقة ، إنها مؤامرة خطيرة.

لحظات حاسمة ومفصلية وتاريخية تلك التي أمام وائل لعمل شيء إنساني مثالي يحسب له العمر كله ، عليه أن يتقدم نحوه بحزم و عزيمة ،أو ينصرف بذل وعار وهزيمة .

كان على وائل أن ينساق إلى اختيار الرّغبة الأولى التي أشعّ بها قلبه وأستنار بها صدره، الله واحد و المنية واحدة، والحياة واحدة ، صلّ صلاة الصّبح واستخار الله بشأن ما سيقدم عليه، ثم انطلق بعد أن ارتشف فنجانا من القهوة نحو مقر عمله، حيث استرجع هاتفه النّقال وبعضا من وثائقه ثم رفع ملفه الشّخصي خلسة وانطلق نحو مقر الشّرطة للتصريح بكل ما سمع و رأى- بعد أن اخذ رخصة خروج من ادارته- حرّرت الجهات المختّصة محضرا بكل الأقوال والتصريحات التي أفضى بها وائل ، امضى على محضر أقواله ثم تلقّى أمرا بالمغادرة ، لكن قبل ذلك ترجّى الشّرطة بعدم فعل شيء حتى يرتّب إجراءات عودته إلى بلده درء لكل عملية انتقامية يمكن أن تستهدفه في أية لحظة . وفعلا حدث ، تلقى وعودا وضمانات قاطعة بحمايته من لحظته تلك حتى يغادر إيطاليا . انتقلت فصيلة الشّرطة إلى مقر مؤسسة " ماسيمليانو فيراتي " وما إن حلّت بالمكان حتى طوّقته بالكامل وبسرعة البّرق ، ولحسن الحظّ كان

مالكها فيراتي وفرانكا و أليساندرو متواجدين فيها تلك اللّحظة ،حيث ألقي القبض عليهم جميعا .

لم تغادر الفصيلة المكان حتى داهمت الأقبية، حيث حجزت كميات كبيرة من الأسلحة المحظورة ومجموعة رسائل كراهية ومعادة للإسلام وكميات من المخدرات، ثم أخرجت كل ما بقي وشمّعت المؤسسة بالشّمع الأحمر.

لم يكن من الصعوبة بمكان، أن تلقي القبض في نفس اليّوم على أنطونيو و مونيكا اللّذين اعترفا بالتُّهم المنسوبة إليهم بالدّليل القاطع و الحجة الدّامغة، ليتمّ تقديم العصابة برمتها لاحقا إلى العدالة للبت في القضيّة كلها .

عاد وائل إلى بلده بعد أن أدى عملا بطوليا إنسانيا معاهدا نفسه على دراسة كل عمل يقترح عليه في الخارج بشكل جديّ متروٍ.

قضى وائل عامين في بلده، نجح في بداية الثاني في منصبه كنائب مدير لمؤسسة من مؤسسات الدّولة، وفي نهاية عامه الثاني عاد إلى إيطاليا لمناقشة رسالة الدكتوراه، حيث تحصل عليها بدرجة تقدير، ثم رجع إلى مسقط رأسه مجددا.

كان عليه استغلال هذه الشّهادة للعمل بها كأستاذ في الجامعة وهو ما حصل فعلا بعد مدّة ، في ظل هذا التغيّر الايجابي في مسار حياته العلميّة والعمليّة ، لم يعد الأن بوسع الرّجل المكافح أن يرفض فكرة الزّواج، بعد إلحاح شدّيد من والده و والدته .

وقد حصل فعلا ، بأن توّجه ذويه إلى إحدى العائلات التي يعرفها عبد الرحيم منذ ردح من الزّمن ، لم يكن لهذه العائلة أن ترفض طلب عبد الرحيم المعروف عندهم بجميل خصاله وطيبته العميقة ، تمت خطبة الفتاة إلى وائل مدة سنة من الزّمن شرب فيها العلقم و المُر .

لقد كانت فتاة انتهازية مادية مظهريّة، لا تعرف شيئا عن الحياة والدّنيا سوى المال و البذخ و التّرف واستغلال النّاس ، ليس هذا فحسب لقد كانت على علاقة بكثير من الرّجال، فهذا رجل وضعته للكلام معه في الهاتف في أمور الجنس والليالي الحمراء، وهذا بنك مركزي أبوابه مفتوحة 24/24 ساعة، والآخر مهمته قضاء مصالحها ولو كانت في بلاد الهّند والسّند وهلم جر .

لم يكتشف وائل كل هذا الكّم الهائل من المصائب فيها إلا بعد مرور سنة أو ما يناهز، الثّابت الوحيد في المعادلة والذي عرفه من البداية وصبر بل اصطبر عليه هو ماديتها المُقيتة. أمور مثل تلك جعلت وائل يستشيط غضبا منها بأن أسمعها دروسا في التّربية والأخلاق والدِّين، ثم أردف ذلك عمليّا بأن أسقطها من حساباته أبديّا.

أبدى عبد الرحيم أسفه العميق العارم لولده لاعتقاده الجازم والصادق بحسن اختياره المّكان والأشخاص و الزّمان، لكنه عقد العزم- بعد هذه التجربة القاسية – بترك فلذة كبده يختار شريكة حياته بنفسه وبناء على قناعاته.

8. حكاية مكة .

نظّمت إحدى الجامعات في المّملكة العربية السّعودية ملتقى دوليا، دعت اليه ممثلين عن كل الجامعات العربية كان وائل من ضمن ممثلي جامعته .

وصل وائل برفقة بعثة جامعته- وبعثات نصف الجامعات ببلده- إلى مكّة المكرمة للمشاركة في فعاليات أشغال المؤتمر، أما النّصف الأخر فلم يصل إلا بعد أربع وعشرين ساعة من وصول الفوج الأول.

اطلع وائل على أسماء المُشاركين في اللّقاء من بلده فإذا به يصادف اسما لم يخطر بباله لحظة، أتم قراءته ثم سقط مغشيّا عليه .

لم تكن تلك اللّحظة الآسرة التي وقعت فيها عيونه على شعاع برّاق منبعث من مكان مضيء يزاحم بنوره تلك الشّمس التي أسدلت خيوطها عليه ، سوى رفّة عين من زمان هائم، ومكان إليه الحنين دائم.

إنه اغلى اسم على قلبه ،أجمل رسم في صدره ،أسمى هدف في باله، قرأ فلم يصدّق، نادى أحد المُشاركين لقرأته عليه بصوت مرتفع ، فلم يصدّق، انحرف ببّصره قليلا ليرى تاريخ ومكان الميلاد، إنه يتأكد بأنها ليست مصادفة ولا تشابه أسماء، نعم هي...

.

إنه يحلف بالله أنه لن يتركها، سيتكلم معها ، سيحدّثها بكل ما في قلبه.

انصرف من المّكان للتّحضير للقاء الغد، للقاء لِقاءٍ مؤجل منذ عقدين من الزمن خلا.

اليوم وقد بلغ وائل الأربعين، هل سيدغدغ الحُب المهاجر قلبه من جديد ؟هل سينطلق لسانه المكبّل من حديد؟ هل سيجد حبه الآسر ملكا له ،أم أنه استحال مِلكا لغيره ؟

ظلّ وائل ينتظر الغد وكأنه ينتظر مائة عام أو يزيد، كان خائفا من رهبة اللّقاء، من ردّة فعلها، من لسانه، من الزّمان ومن المّكان، من كل شيء، لكنّه في كل الأحوال مشتاق والشوق فتّاك.

طلعت شموس الغد الجّميل، واجتمع المؤتمرون في المّكان الموعود و الزّمن المنشود، دخل وائل الأول وبدأ يتمعن في كل أنثى تلج المّكان ، يرقبُ في ولهٍ لحظة ابصاره لحبه الغائب، عليه التّرقب والتحرّي جيّدا ، فالمُدة طويلة وسنة الله في خلقه أن تتغير ملامح خلقه.

دخل البّدر مشرقا من البّاب مطأطئ الرأس، بلباسٍ أبيض ناصعٍ كأنه في ليلة تمامه، ينير عتمة الظّلام الدّامس من حوله ، عرفها وائل رغم التغيّر الذي طالها، لكن موقفا مثل هذا بقدر ما جعل أساريره تهلُّ، بقدر ما جعلها تحمّر وتصفّر، تلعثم لسانه ، ونضّبت أنفاسه ، وتدافعت ضربات قلبه إلى مائتين بالثّانية.

بدأت الأشغال بالكلمة الافتتاحية بعد قراءة آيات بيّنات من كتاب الله عز وجل، ثم تداول على المنصّة كل المؤتمرين ، إلى أن حان وقت المُناداة على عواطف لإلقاء مداخلتها التّي لم تدم سوى خمس دقائق، لقد تأكد وائل بأنها هيّ عندما قام مقدّم القاعة بسرد رحلتها الأكاديمية، سماع وائل لذلك السّرد جعله يطير فرحا وينغمس في قمّة

حماسته، وما إن نزلت عواطف من المنصّة ،حتى تمّت المناداة على وائل فاعوري لإلقاء كلمته في حدود دقائق خمسة، قال فيها :

-إنا اليوم أسعد إنسان في الوّجود، اليوم التقيت بإنسان أحبُ إليّ من قلبي الذي ينبض بصدري، هي روعي وروحي ، الذي التقيته بعد ضيّاع في عرض البّحر ،واغتراب فاق العقدين من الزمن ،اليوم أشرقت شمسي وارتوت عروقي وانتعشت أزهاري بعدما ذوت وذبلت ، ثم مضى في إلقاء مداخلته.

انتهى المؤتمر و توّجه وائل مسرعا نحو عواطف ، إنها لحظة تاريخية تكتب بماء الذّهب بل بماء العين ،كاد يضمّها غبطة وفرحا في لحظة لا وعي ،في لحظة يغيب فيها العقل ويتسّلطن فيها الفؤاد ، انطلق لسانه في لحظة شوق جارفة يقول:

-عواطف، هل عرفتني ؟

-بالشّكل والرّسم لا، بالاسم نعم.

-لا أعلم ماذا أقول، ولكن مدّة عقد من الزّمن لا تكفي....

لم تمهل عواطف وائل لتتّمة كلامه ،وقاطعته :

-شكرا لك ، عليّ وعلى زميلاتي الانصراف الآن .

لم يكترث لكلامها بل واصل التعبير عن مشاعره :

-عواطف، أنا أحبك، انا.....؟

-من فضلك، ما هذا الاندفاع.....؟

-أرجوك، اسمعيني، عليك أن تسمعيني إلى آخر حرفٍ ، ثم افعلِ ما يحلو لك ، صدقا أنا جاد في كلامي ، جئتك بغرض طلب يدّك للزّواج، إن كنت غير مرتبطة.

-نعم، لست مرتبطة، ولا أفكر في ذلك مطلقا .

-أرجوك رقم هاتفك ، أنا بحاجة لك.

-لا أستطيع...

انصرفت عواطف تاركة وائل و الدّمع ينهمر من عينيه كالشّلال المندفع في جدار جبل ، شقّ طريقه مرّة أخرى نحو إحدى زميلاتها ليترجاها بقوّة لتمنح له رقم هاتف عواطف ، لم يكن بوسع الأخيرة سوى الإشفاق على وائل وعلى حاله الموجع . منحته رقم الهاتف و العنوان الشّخصي و عنوان الجامعة التي تدرّس فيها - في لحظة انصراف عواطف نحو الممر المفضّي إلى خارج القّاعة - و ترجته أن لا يذكر ما جرى بينهما لعواطف مهما كان الحال .

عاد الجميع إلى أوطانهم، و قرر وائل فعل المُستحيل وبأقصى سرعة من أجل بلوغ مرامه، تكلم مع أبيه على جناح السّرعة للذّهاب إلى أهلها و التّقدم لها بشكل رسمي وإبداء حسن النيّة علّها ظنّت به سوءً، يجب عليه أن يهبّ سعيا وراء الفرصة ، التي قد تكون الفرصة الأخيرة.

انتقلت عائلة وائل إلى بيت عواطف – جميعها -لإبداء اهتمامهم بها كونها أنثى غير عادية في حياة ابنهم الذّي عاش الجّحيم طِوال فترة غيابها عنه.

وصل الجمع إلى حيث تسكن عواطف ، أو إن شئت إلى حيث يسكن قلب وائل ،الذي مكُث غير بعيد عن الحدث ، ينتظر برقية أمل و بشرى خير، لقد كانت اللّحظات تلك بِدهر على قلب وائل ، يعدّها بالثّانية أو أقل من ذلك .

كان استقبالا طيّبا أسطوريا ذلك الذي حُظيت به العائلة من أهل عواطف كلّهم ، لكن أمر ارتباطها حسبّهم كان معقودا بيّدها وحدها دون سِواها ، وهم يعلمون علم اليّقين أنها حسّمت القرار منذ فترة وأنها لا تفكر البتّة في الارتباط لظروف لا يعلمها أحد سواها، وهو عينُ الكّلام الذي تم إبلاغه لعبد الرحيم وعائلته ،ولكن في الآن ذاته – وحتى لا يقطعوا شعرة معاوية بكلمة - طلبوا منه ترك رقم هاتفه للاتصال به حال وجود جديد في القضية.

أبلغ عبد الرحيم ابنه وائل بقرار لم يكن ينتظره و لا يريده،لكنه بالمقابل كان على أُهبة الاستعداد لفعل أمر مجنون لأجل حبّه ، الذي يلعب أمامه الآن بكل فرصه ، مهما كانت مجنونة .

لقد صار ينتظرها في مقر الجّامعة التي كانت تدرّس بها، إنه يضحك على تصرفاته تلك بطريقة تهكميّة، فكيف لرجل في الأربعين من عمره أن يتصّرف مثل هكذا تصرّف ؟

أراد -من خلال تلك الصّولات والجّولات - الكلام معها عدّيد المرّات لكنها صدّته بِلطف وبكلام راقٍ و بأسلوب مهذّب، كلّمها مليون مرة، و لا جديد يلوح في الأفق، أرسل لها زميلاتها لكن لا شيء تغيّر .

إنه في شهره الثّالث على نفس الحال ، وفي يومٍ مثلجٍ بارد، وبينما هو في انتظارها كالعادة ، إذ بها تمرُّ عليه فانطلق نحوها ليكلّمها غير أنه وفي لمح البّصر انزلق رجله فسقط سقوطا موجعا، جعل جميع من كان هناك يلتفت نحوه ، فمنهم من ضحك لما رأى ومنهم من هرع لنجدته ، ومنهم من تسمّر مكانه ،التفتت نحوه عواطف وإذا بها تُبْصره يئنُّ من قوّة الوّجع الذي في قلبه ، والألم الذي برجله الذي دار بزاوية عنيفة عن وضعه الطّبيعي.

انطلقت مهرولة نحوه بسُرعة لإسعافه والاطمئنان عليه ، فإذا بها تسقط هي الأخرى بجانبه وهي تبتسِم لما حدث لها، حزينة لما جرى له. أسرع أحد الأساتذة في نقل وائل إلى المستشفى بسرعة فائقة حيث أجريت له عملية إرجاعٍ لقدمه الملتويّة.

نجحت العمليّة وتحسنت حالة وائل وعاد إلى البيت للمكوث فيه خلال فترة إعادة التأهيل الحركي، في يومه الثّالث زاره أحد معارف أهل عواطف زافّاً معه بشرى سارّة، مفادها أن قلب وائل قبِل الارتباط به، عبارة جعلت وائل ينسى وضعه الصّحي ، حيث قفز من سريره نحو السّماء مغتبطا مسرورا.

لقد تحقق الأمل بعد الألم ، لقد تحقق النّصر بعد الكّسر، لقد تحقق اليُّسر بعد العُسر.

اجتمع أفراد العائلة الكبيرة الجديدة كلهم في بيت عواطف لإتمام إجراءات الزواج ، تكلّم الجميع ولمّا صار الدور على وائل قال :

-لقد حقّقت اليوم أكبر أحلام حياتي، حقّقت حلما ظلّ يسكن جفوني يانِعا كالوّردة الحمراء بل أشهى وأنظرْ ، بعد عشرين عاما من الانتظار، بل أكثر .

ثم التفت إلى عواطف قائلا :

-هل تذكرين المّكان الذي كحّلت عيني بك فيه ؟

لم ترد لخجلها.

ثم أردف بالقول :

-إنها مكّة المُكرمة، سنعود إليها بإذن الله تعالى أنا وأنت، سأكون لك محرما فأنت حلالي وستصِرين بإذن الله أما صالحة لأولادي ، سنحجُّ بمشيئة الرّحمان في قابل.

اغرورقت عينا عواطف لما سمعت وهي عين الوّقت تتوشح بابتسامة رضا وحب و أمل، إنها لحظة فرحٍ بنكهة شجون،إنها لحظة طفرة جنون.

ماهي إلا لحظات حتى طرق أحدهم البّاب فتوجه والد عواطف لفتحه، إنه شيخ هرم في السّن ، استأذن الدّخول بعد أن عرّف بنفسه، سمع وائل صوت شيخه " حافظ " فانبرى نحو صاحب البيت ليطلب الإذن منه من أجل إدخال معلمه .

كانت لحظةً جميلة ،احتضن فيها وائل معلمه السّابق طويلا، لم يتمالك " حافظ " نفسه من البّكاء فرحا ، إنه يقول لوائل :

-عاهدتك يا بني ذات يوم بالحضور لهذه اللّحظات السعيدة الغامرة من حياتك ،وها أنا أبارك لكما زواجكما السّعيد.

قرأ " الشيخ " فاتحة القرآن، لتصبح عواطف من لحظتها زوجةً لوائل على كتاب الله وسنة رسوله صلّ الله عليه وسلم.

تناول " حافظ " الكلمة موجها كلامه للجميع قائلا:

- أريد أبنائي وأحبتي في الله، أن أختصر قولي في بضع كلمات يحتاجها كل منا في حياته:

*اتق الله حيثما كنت ، أطع الله في سرّك و نجواك، و بِر والديك..

*اجعل لنفسك أهدافا نبيلة في الحياة ،واسْع لتحقيقها بوسائل شرعيّة ..

*كافح وناضل لبلوغ مرامك، وإن كانت نجوما في السّماء ..

*كن متسامحا ، مع أعدائك ومع أحبابك على حد سواء..

*لا تتعجل الأمور، فمن يستعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، واعلم الصبر صبران ، صبر على ما تحب و صبر على ما تكره، والصبر مفتاح الفرج ..

*تزوّد بالعلم في أي مرحلة من حياتك، و لو كنت في أرذل العُمر..

*حافظ على صلاتك في وقتها، وعلى علاقتك بالله عز وجل تحت كل الظّروف..

*ابتغِ من وراء زواجك ، تأسيس أسرة تدخلك وتدخلها الجّنة بطاعة الله وتقواه.

أنهى " الشيخ المعلم " كلامه ثم انصرف الجميع بعد أن ضبطوا موعد حفل الزّفاف

.

9.السّماءُ تُمطِّرُ

حُبّاَ.

تزوج وائل بعواطف في حفل أسطوري، عمل المُستحيل من أجل أن يجعله علامة مسجّلة لأغلى إنسانة مرّت بحياته. انطلق بها ذات يومٍ إلى الثّانوية التي درسا بها ذات يوم وإلى القسم الذي جمعهما، أجلسها في مقعدها في الصف الأول، الطّاولة الثالثة، المقعد الأيمن، ثم دخل القسم محاكيا ما جرى قبل أكثر من عقدين من الزّمن خلا.

نعم لقد تغير كل شيء ، جنبات الثانوية ، شكل جدرانها ، لون طلائها، أشجارها اليّافعة التي أضحت باسقة شامخة قويّة ،حارسها الذي بالباب ، وتلك الكتابات الحائطية التي تؤرخ للحاضر وللزّمن الغابر ، فتشكل فسيفساء زمنية مرجعيّة ، تدغدغ أذن المّار الزّائر، أن أجيالا مرّت من هنا ، أحدهم مِن القُدامى بصم على حضوره بعبارة أُحبك ،هذا عنوان بيتي ، وأخر سجّل لها رابط صفحته على فيسبوك وتويتر ، وآخر رقم هاتفه الخلوي ، إنها تعابير تؤرخ لأزمنة مختلفة متباعدة ، لكنّ ثمة قاسم مشترك يجمعها ، إنه التعبير عن مشاعر مكنونة ، لم يستطع لسان البّوح بها ، فانبرت لها أنامل اتخذت من الجُدران فضاءً للتّعبير عنها .

توّجه وائل نحو عواطف بكل حب وحنان، ضمها إليه بلطف ونظر إليها في ولهٍ وعشق والدُّموع تنهمر من عينيهما، قال لها في تؤدة ورفق كلمات بندر :

-تعبت من السّفر إليك، حقائب وجع، وتأشيرات مرور حزينة، وسنوات طويلة من الانتظار. تعبت يدا تقرّع الجدران بحثا عن أبواب السّكينة . لقد نضجت بعدك كل ثمار أحزاني لكنها لم تسقط. ظلّت معلقة في رماد الذّكرى وحلم الآتي .

ثم أردف يقول:

-كانت الحياة قاسيّة علينا، نحن تعذّبنا كثيرا. اعترف أنها قاسيّة، لكنّ الله استجاب لدعواتي ، نحن الآن معا وإلى الأبد. سنكون سعداء لأننا انتصرنا . صدقيني لا أحمل البُغض لأحد ،ولا أُكنُّ الكُره لِأحد، ولا أُريد الانتقام. أرنو فقط إلى الطمأنينة و السّكينة وأنا بجانبك .

ها هي زخات المّطر تنزل رذاذاً من الغيمة البيضاء لتسقي القُلوب وتطهّر الأرض من كل دنس، فتستحيل إلى مروج وجنات خضراء، تعانق الأجواء وتلطّف الهواء ، وتزهو بها الحياة ، الحياة التي نحلم بها ونريد ، الحياة التي كافحنا خلالها ، وسنكافح سويّا ، كي نعيش معا وإلى الأبد.

10.جدثُ عواطف.

كان الوقت صُبحاَ، ليوم من أيام الرّبيع الخضل، ها هي الأمطار تنزل ، ورذاذها يتساقط بهدوء فوق بنايات وباحات المدينة التي يقيم فيها وائل ، صلّ صلاة الصُّبح قبل شروق الشّمس بعد أن توضأ، جلس بعدها إلى طاولة ، على وجهها صنوف من الألوان التي تزينها وفنجانٌ ساخنُ حارُ من القهوة ، وقطعة حلوى ، وحبة تفاح ، جلس وائل ، ارتشف من فنجان القهوة القليل، ثم قضم قضمه من حبة التفاح النديّة. انصرف على عجل بعدها نحو غرفته ليلبس أجمل ما لديه ويضع قليلا من عطرٍ انجليزي فاخر ، تناول مطّريته وخرج.

توّجه رأسا تلقاء مقبرة المدينة أين غُيّبت أجداث في ثراها المخضّر ، وسط هدوءٍ تقبع فيه ، نظر وائل بعين دامعة لا تكفكف إلى حيث رمسٍ ، كُتب عليه في يافطةٌ رخاميّة اسم عواطف ، صوّب ناظره تجاه الجدث الحزين ، المغمور ماءَ ونباتاَ ، والصّمت المطبق يسكن لسانه، تتبلّد كل حركة فيه فتشل ، تمنّى لحظته تلك لو يستطيع بذل مهجة قلبه لعودة لحظة من ذاك الزمن الموسوم بالجميل. زمنٌ كانت عواطف فيه حيّة، تذّكر ضحكاتها وبسماتها وكلماتها، تذّكر أيام الشقاوة العابثة البريئة، تذّكر لحظات الدراسة النديّة، وأقلام ودفاتر ورديّة. و شباب يافعٌ ولّى إلى غير أوبة...

بصوت رقراقٍ جميلٍ منبعث من حنجرة سكنتها غصة وبحة وجع، قبالة جدث من الماضي جلس، وحملق حول المكان ، يناديها باسمها المنقوش بماء الرّوح في قلبه ، وهدوء الأجواء تردّ له صدّى المكان الحزين. مدمن مكان هو ، تغيّر الزّمان وقلبه لم يتغيرّ، ينثر بأنامل يديه شذى الورد وشيء من التّراب الندّي فوق رمسها ، وينزل دمعة لا تكفكف من مدامعها ، وينظر إلى حيث غيبت في عمق الذكرى الآسرة...

لقد بقي أثر ذلك الحلم - حلم الزواج بعواطف وقبولها لها - الذي راه كثيرا في غفوته وصحوته ، يسكن مقلة عينيه، بل كلّ وجدانه، آه لو تحقق، ولكن يبدُ ذلك مستحيلا فعلا وقولا، لقد غادرت بطلته الحياة بإرادتها وبرغبتها، وبصمتْ على نهايةٍ دراماتيكية موجعة....

كل مرة يقصد فيها وائل ذاك الرمس المتواجد نهاية الجادة 444، يقف على شفيره ، ويتذكر ، لم يكن ذلك القبر الافتراضي سوى حفرة ردم فيها كتلة من الأحزان سكنت اغوار قلبه كل هذا الزّمن ،قبرٌ دفن فيه كلّ عواطف وكلّ العواطف ، بعد أن رفضته ، واختارت لنفسها العيش بإرادتها في عوالم من صنع يديها ، رحلت جسدا عن وائل ، وظلّ حلمٌ يسري في أعماقه، وُسِم بوتين قلب، غادرته وغادرت المكان والزمان ، غادرت حياة وائل الانسان، تركت له قلبا كظيما ، تركت له عقبا اخيلا في قلبه، جعلت أفانين حياته منكسرة محطمة، فترات زمن .

اليوم وقد اجتاز عقده الخامس، اصبح مدمن عبادة ودعاء وتضرع الى الله ، تخلى عن زيارة ذاك الرّمس -الذي لم يعد له قيمة في وجدانه-كما كان ، خلا قلبه منه الآن للعبادة وحدها كليّا، لقد ادرك انه قد بخع نفسه همّا وغمّا طيلة الوقت الفائت من حياته، ليرجع شيئا لم يصر له ملكا، لأنثى اختارت حياتها، ومستقبلها، مع انسانها الذي نبض له قلبها بل جيبها ، ورسمت معه حلمها ولون حياتها، وائل لم يعد ذاك الرجل الشّاذي -الطالب شيئا- الذي يسعى وراء قلبه ، بل صار عقله صاحب السّلطان على قلبه.

انفصلت عواطف بعد مدة وجيزة ، واستغلت فرصة حفل زفاف اخت وائل للظهور مجددا ، لخطب ود قلب كليم، تركته لقهر الزمان يوما، تزينت وارتدت اجمل ما لديها ، ثم انصرفت الى بيت وائل العائلي ، ترجته وتوددت اليه:

_وائل، لقد ارتكبت جناية في حق نفسي ، قبل ان ارتكبها في حقك، ناشدتك بالله ان تسامحني....؟

_سامحتك من اعماق فؤادي، لأنني أريد من الله أن يغمرني بعطفه ومغفرته ، سامحتكِ وأشفقتُ عليكِ لأنك أكثر الناس تناقضاَ ، عشتِ حياةً مثاليةً في شبابك ، ولما كبرتِ نقص نضجكِ ، واستحلتِ إلى كائنٍ مادي التفكير والهوى، الآن وقد جئتِ متأخرة، هل لكِ أن تجيبي نفسكِ ، ماذا فعلت لكِ حتى عاملتني بسوء، ماذا يفيد لو ارتبطت بكِ؟ انتِ الآن مطلقة ولست عزباء، ،انتِ الآن أمٌ لطفل، وليس المشكل في الطلاق أو الطفل بحال من الأحوال ،بل المشكل في تركك لي بمحض رغبتكِ في

عز حبي لكِ انتِ الآن دمار قلب بعد أن كنتِ أرجوحة قلب ..هل يهمك وائل الانسان أم وائل الوزير ؟ لو ارتبط بك الآن ربما تطلبين الطلاق بعد فقداني تلك الصفة والمنصب والجاه ؟توجهت نيتي للزواج منك، ولكنك اخترتِ طريق المال والشهرة والبذخ والترف والسيارات الفارهة والفيلات الواسعة، تتذكرين تلك الأيام وتلك اللحظات عندما فاتحتك في الموضوع ، وقابلتني بالصد والرد ، وحجتك فقري وفاقتي وضعف مركزي الاجتماعي ، نظرتِ الى نفسك باستعلاء ، ونظرتِ الى شخصي بازدراء ، تتذكرين كيف كنت توجعينني بكلامك العلقم، وبلسانك الحاد ، جئتك وارسلت في طلبك والقرب منك ، اغلقتِ هاتفكِ، ورفضتِ استقبال كل من يمت بصلة لي ، بعتُ الدنيا من اجلك، ولكنكِ بعتني بأرخص الأثمان ، شقّيْتُ من اجلك دروبا ومسالك وعرة ،تحملت من اجلك كل صنوف العذاب، دفعت من اجل عيونك كل شبابي وقوتي ، ضعفي وحياتي، قتلتِ قلبي قهرا ، ونفسي وجعا، وروحي بثا وحزنا، لقد جئتِ متأخرة جدا ، وهل يفسد العطار ما أفسده الدّهر؟ الآن وقد رزقني الله بملاك رائع ، أنتِ وهي لا تحملان عين الاسم ، ولا الرّوح ولا الرّسم، هي الآن كل حياتي ، وماصرت انتِ حياتي، رزقني معها الله احلى بنت ، ملئت لي كل حياتي. من السهل ان تضحي بالنّاس ولكن تذكري بأن الحياة الصعبة التي عشتها انتهت فصولها الآن برزق من الله كنت اتوقعه ، تذكري أنه كما تدين تدان والأيام دُولة بين الناس ، أنا ممتن لك ولصنيعك الذي لن أنساه ابد الدّهر ما حييت، تعلمت منك ومن الدنيا ، كنتِ سببا -بعد أمر الله- في حدوث نقطة انعطاف رائعة غيرت مجرى حياتي نحو الأفضل والأجمل.

صمت برهة ، واسترسل :

_ عواطف ، وضعتِ نقطة النهاية بنفسك ، كنتِ سببا في معرفتي لسارة الانسانة التي اعيش معها اليوم رحيق حياتي، بلسمي وروحي التي بين أضلعي ، أُنثاي التي جعلتني رجلا ، وزيرا، حليما، متزنا، مهابا، أُنثاي التي قبلت الزّواج بي ، لحظةَ كنت فيها مريضا ، مثخنا بالجراح، فقدت فيها الكثير من صحتي، فقدت فيها وظيفتي، فقدت فيها اقرب الناس لي ، بسببك انتِ، تجاسرت المسكينة وتركت كل الدنيا لأجلي ، وقفت معي في حال قوتي وضعفي ،هي اليوم بالنسبة لي أجمل حب وأحلى حكاية، أما انتِ فأتمنى لكِ الخير والسّعادة ، وصدقاً لن يزول من مخايلي تلك اللحظات الرائعة التي مرّت بحياتي بسببك ، هي لحظتي تلك بلسمٌ للآهات ،وهي اليوم- رغم كمية الجراح الغائرة - عبقٌ للذكريات

انتهت بفضل الله عزّ وجل.

الفهرس

1. إرهاصات تمرد.....ص7

2. أيادٍ عابثة.....ص 27

3. في البيت الجديد.....ص48

4. ضياع في عرض البحر.....ص66

5عمري كلّو.....ص93

6.نبضات قلب.....ص101

7.الطائرالمهاجر.....ص156

8.حكايةمكة ص181

9.السّماءتمطر حبّا.....ص191

10.جدث عواطف.....ص194